هدي القرآن الكريم

إلى الحجة والبرهان

بقلم

الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهد ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين _ في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية _ بإجازات عالية الأسانيد _ محفوظة عندي _ سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً ، إنه هو السميع العليم

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ،وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فاعلم أيها الإنسان المفكر ، والعاقل المتبصر ، أن الدين الإسلامي الحنيف هو قائم على الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، في جميع ما جاء يدعوا إليه من ، عقائد وعبادات ، ومعاملات ومبادلات مالية ، ومعاشرات زوجية ، وفي سائر مبادئه ومضامينه .

وإن الحجج والبراهين التي جاء بها الدين الإسلامي هي موجهة لذوي الأفكار المستقيمة ، والعقول السليمة ، التي تعقل المراد مما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الناطق عن وحي من الله تعالى ، الوحي القرآني ، والوحي النبوي ألا وهو ، كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وذلك لأن ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو منار هدي وضياء ، ورشاد وسداد ، يستنير العقل بضيائه ، ويهتدي بنوره إلى معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة حقها من باطلها ، وما يترتب عليها من خير وشر ، ونفع وضر ، وما تؤدي إليه من نتائج حسنة أو سيئة ، وعواقب سليمة أو ذميمة .

فإن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو للعقول السليمة كالشمس المضيئة لأولي الأبصار السليمة ، فإن حاسة البصر وحدها لا تنفع صاحبها شيئاً ، ولا تظهر له من الخفايا شيئاً ما لم يكن ثمة نور

خارجي لآخر يلتقي معه نور البصر ، كما أن ضياء الشمس وجميع النيرات لا تنفع من فقد نور البصر .

فإذا مشى نور البصر على نور الشمس أو القمر أو غيرها من النيرات اهتدى البصير إلى مصالح الأمور .

وهكذا فإن من فقد نور العقل لا ينفعه نور الوحي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أن نور العقل إذا لم يستضئ بنور الشرع المحمدي فإنه يتخبط في المتاهات ، ويتقلب في الضلالات ، ولا يعرف حقيقة ما ينفعه وما يضره وإلى هذا يرشد الله تعالى عباده فيقول : (فالذين آمنوا به _ أي برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

ويقول سبحانه : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير) .

ومن هنا يعلم العاقل أن الله تعالى بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ومعه نور من الله تعالى يضيء للعقول طرق التفكر والتذكر والتبصر ، فبه يعلمون الحق علماً جازماً ، وتستنير به قلوبهم فيؤمنون إيماناً صادقاً بلا شك ولا ارتياب .

وفيهم يقول سبحانه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) .

ومن أجل ذلك جاءت التكاليف الشرعية ، والخطابات الإلهية _ موجهة للعقلاء البالغين مرفوعة عن الصبيان والمجانين ، فإذا بلغ العاقل سن الحلم

صار موضع الخطاب بالتكاليف الدينية والأوامر الربانية .

ذلك لأن هذا الدين المحمدي جاء بالمعقولات المبرمة ، والقضايا المحكمة التي يوقن بها كل منصف عاقل ، ولا يزيغ عنها إلا متكبر جاهل ، وعلى هذا الهدي المحمدي سار الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى يوم الدين ، لأنهم أولو عقول سامية ، وأفكار نيرة .

قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجه : (إذا سمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا فظنوا به الذي هو أهدى ، والذي هو أهنأ ، والذي هو أبقى) .

وفي رواية عنه : (إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأبقاه) . ا هـ

والمعنى أيقنوا بأن ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم هو أهدى ما يكون إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، ولا أسعد منه ، ولا أرشد منه ، ولا أنفع منه .

ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : (إذا سمعت الله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه) .

وقد سئل بعض الأعراب فقيل له : بما عرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال العقل : ليته أمره .

وقد أذعنت عقلاء البشر وحكماؤهم لحقيقة ما جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، واعترفوا بمعقوليته وحكمته ؛ فأسلموا لذلك واستسلموا .

فهذا المنذر بن ساوى لما بعث إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه يدعوه فيه إلى الإسلام قال له العلاء حين قدم عليه :

(يا منذر إنك عظيم العقل فلا تصغره في الآخرة ، إن هذه المجوسية _ أي التي تدين بها _ هي شر الدين ، ليس فيها تكريم للعرب ، ولا علم عند أهل الكتاب _ إنهم ينكحون ما يستحيى منه ، ويأكلون ما يتكرم عن أكله _ أي : من الخبائث والنجاسات _ ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة .

ولست _ يا منذر _ بعديم العقل ولا الرأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه ، ولمن لا يخون أن لا تأمنه ، ولمن لا يخلف أن لا تثق به .

فإن كان هكذا _ فهذا هو النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الذي والله : لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، وما نهى عنه ليته أمر به ، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه [1] ، إذ كل ذلك جاء منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر) .

فقال له المنذر : قد نظرت في هذا الذي في يدي _ أي : دين المجوسية _ فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟

ولقد عجبت أمس ممن يقبله _ أي يدخل في دين الإسلام _ وعجبت اليوم

[1] أي : عقوبته على الجرائم : كالقصاص والحدود والتعازير ونحو ذلك .

ممن يرده _ أي لا يدخل فيه مع أنه جاء بالمنطق السليم والعقل القويم وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله صلى الله عليه وسلم وسأنظر . ا ه

أي : سأنظر فيما أصنع من الذهاب إلى هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، أو مكاتبته ، أو نحو ذلك ، _ وليس مراده النظر في القبول أو الرد ، لأن قوله : وعجبت اليوم ممن يرده _ فيه اعتراف منه بأنه دين حق وقد انشرح صدره .

ولما قدم المهاجر بن أبي أمية المخزومي على الحارث بن عبد كلال أحد ملوك حميّر وقد بعثه إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له المهاجر : (يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم نفسه فخطئت عنه وأنت أعظم قدراً _ أي : من غيرك من ملوك حميّر _ وإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا أسرك يومك فخف غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارهم وبقيت أخبارهم ، عاشوا طويلا وأملوا بعيدا ، وتزودوا قليلا _ فمنهم من أدركه الموت ومنهم من أكلته النقم .

وأنا أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد .

وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن مما يأمر به ، ولا أقبح مما ينهى عنه .

واعلم أن لك رباً يميت الحي ويحيى الميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ا هـ

فالدعوة إلى دين الله تعالى قائمة على المنطق السليم ، والعقل القويم ،

والبرهان المستقيم ، ولذلك ترى أيها العاقل أن القرآن الكريم جاء يدعوا إلى المنهج الساطع مع البرهان القاطع ، وجاء بالهدى مع بينات من الهدى : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة) ، وجاء يهدي إلى سبيل الرشاد مع الحجة على جميع العباد .

وها أنا أذكر وجوهاً من الأدلة القرآنية على ذلك إن شاء الله تعالى .

ومن أجل ذلك ترى أن الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلوا على الناس آيات الله تعالى _ داعياً لهم إلى الله تعالى على بصيرة ، وداعيا إلى الهدى ودين الحق : بالدليل الساطع ، والبرهان اللامع ،قال الله تعالى : (أنما أمرت أن أعبد ربُّ هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين) .

فقد أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة القرآن على الناس داعياً لهم وهادياً إلى الله تعالى ودينه القويم ، وشرعه الحكيم ، ثم بين نتيجة ذلك أن منهم ، من يهتدي ، ومنهم من يضل بعد ما بلغته الدعوة ، وقامت عليه الحجة ، وأضاءت أمامه المحجة .

كما بين الله تعالى أن من أعظم مواقف النبي صلى الله عليه وسلم مع العالم ، ومن أهم وظائفه التي أمره الله تعالى بها _ تلاوة القرآن الكريم على العباد ، وتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم ،وبذلك يهتدي العباد إلى سبيل الرشاد ، قال الله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أحق القيام وأكمله ، وأقومه

وأحكمه وأحسنه _ يتلو على العباد آيات الله تعالى ، ويسمعهم ذلك حال كونهم أفراداً وجماعات ، في مجالس خاصة ، وفي محافل عامة ، فمنهم من اهتدى بنور ذلك الهدي ، ومنهم من أعرض وجحد بعد ما ظهر له نور الحق وبرهان الصدق : عناداً وكبراً ، كما هو شأن كل جبار عنيد ، يعرف الحق ولا يعترف به ، قال تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

القرآن الكريم كتاب هدي ودعوة إلى منهج الحق

مع الحجج والبينات من الهدى والفرقان

إن كل من تلا آيات القرآن الكريم أو سمعها وتدبرها يتضح له جلياً أنه جاء بالهدى الثابت بالبينات ، بحيث يحمل العقلاء على أن يعقلوا ما تضمنته آياته ، وما اشتملت عليه بيناته ، ينهض بأولى الألباب إلى التبصر في بصائر آياته ، ويدعوا الحكماء إلى التفكر في أحكامه وحكمه ، وفي علومه ومعارفه ، وفي معانيه ومفاهيمه ، وأسراره وعجائبه التي لا تنقضي ولا تنفد ، مهما امتدت العصور ، وتطورت القرون والدهور .

ويتبين ذلك من وجوه عديدة لا تحصى ، وإنما أذكر منها أطرافاً موجزة تضيء للباحث المفكر المتدبر طرق بحثه وتفكيره وتدبره ، فيعلم يقيناً أن القرآن هو : كتاب دعوة وبرهان ، ودليل وتبيان لجميع الطبقات وعموم البيئات على ممر العصور وامتداد الدهور :

الوجه الأول :

القرآن الكريم أنزله الله تعالى ليعقله العقلاء ويتفهمه الحكماء لأنه كتاب الحكيم : قال تعالى : (آلر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً

لعلكم تعقلون) ، وقال تعالى : (حَم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) وقال تعالى : (آلر آيات الكتاب الحكيم) .

فهذا إعلان من الله تعالى لعباده صدر به هذه السور الكريمة ، يعلمهم أن ما جاء به هذا القرآن الكريم هو الحق المحكم ، والمعقول المبرم ، ليس فيه مصادمة للعقول السليمة بل إن تلك العقول السليمة لتتلقى ما جاء به هذا القرآن الكريم بحسن القبول ، مع الانقياد والتسليم له ، كما أنه لا يستطيع العقلاء أن ينقضوا الحق الذي جاء به هذا القرآن الكريم ، أو يردوه _ ويتضح ذلك من وجوه متعددة:

أ _ لقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي الناس إلى العقائد السليمة ، والأعمال الشرعية الحكيمة ، والآداب والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فلو أنه جاء بما ينافي ويعارض عقلاء المكلفين لبطلت الحكمة في إنزاله ، وعاد الأمر عليه بالنقض ، لأنه حينئذ لا تتقبله عقلاء المكلفين فضلاً عن أن تعمل بمقتضاه وتتحقق بما جاء به من عقائد وأعمال وأخلاق ، فإن العمل بغير المعقول لا يسوغ عند أهل العقول .

ولكن الأمر الواقع هو أن الله تعالى بين في كتابه العزيز الأدلة المعقولة المقبولة المحكمة ، ليتلقاها العقلاء بالقبول والتصديق ، وليعملوا بمقتضاها ،سواء في ذلك: الأدلة على الأحكام الإلهية الإيمانية الإعتقادية ، والأحكام الشرعية العملية .

ب_ إن مورد التكاليف والخطابات الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم هو العقل ، فإذا فقد العقل ارتفع التكليف ، كما هو ثابت في الشرع قطعاً ، وفي

ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل [٢])) ، وفي رواية لأحمد : ((وعن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ)) .

وهذا واضح في أن ما جاء به الكتاب والسنة النبوية هو معقول ، بحيث يلزم العاقل المكلف أن يعمل بمقتضاه ، فلو أنه كان على خلاف ما تقتضيه العقول السليمة لكان لزوم التكليف على العاقل أشد وأثقل من لزومه على المعتوه والصبي والنائم ونحوهم،لأنه لا عقل لهؤلاء يحملهم على التصديق بما جاء به ؛ أو عدم التصديق .

وأما العاقل فإنه _ والحالة هذه _ يأتيه ما لا يمكن تصديقه به عقلاً بل يرده العقل ، ومع ذلك هو ملزم به اعتقاداً وعملاً ، وهذا تكليف بما لا يطاق ، لأنه تكليف العاقل بما لا يعقل ، وإن الله تعالى لا يكلف بما لا يطاق .

فإذا كان التكليف بما لا يعقل ساقطاً عن الذين لا عقل لهم ، لزم من باب أولى أن يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً لأنهم حينئذ كلفوا بما تنافيه العقول وترده .

إذاً من المكلف بهذه التكاليف الواردة في الكتاب ؟ ولمن تتوجه الخطابات الإلهية ؟؟

وبناء على ذلك فإن نزول الكتاب الكريم يكون عبثاً ، والله تعالى منزه عن العبث ، بل له الحكم الربانية في إنزاله الكتاب عز وجل ، قال تعالى :

---

[٢] عزاه في الفتح إلى الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

(تنزيل من حكيم حميد)) ، وقال تعالى : (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

فإن في هذا الكتاب الكريم تربية العالم وصلاحه وفلاحه ، وهداه ونجاحه ، فمن ابتغى الهدى والفلاح والرشاد والنجاح في غيره فقد ضل وخاب وخسر ، وذلك لأن الذي خلق العالم هو أعلم بما فيه صلاحه ونجاحه ، ومن ثم كان الحق كل الحق ، ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة : أن الذي يخلق هو الذي يحكم ويشرع لا غيره ، قال تعالى : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، وقال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

فالخالق هو أعلم بما خلق ، والصانع هو أدرى بمصلحة مصنوعه ، وهذا أمر معلوم بالبداهة .

فالله تعالى الذي خلق الإنسان هو أعلم بما أودع فيه من قوى ومدارك ، وطاقات وقابليات ، وهو أعلم بكمها وكيفيها ، ونسبها ومقاديرها ، ويعلم ما فيه من الدواعي والشهوات ، وما يصلحها ويعدلها ويكملها ، وهو أعلم بما يفسدها ويضر بها .

إذاً فهو سبحانه له الأمر والتشريع وإصدار الأحكام التي فيها مصالح العالم وخيره ونجاحه ، لأنه العليم الحكيم ، الذي يضع الأشياء في مواضعها دون إفراط ولا تفريط ، ويضع الدواء حيث الداء .

وإن حكمة كل حكيم تابعة لعلمه ، وإن علم الله تعالى هو العلم الذي إليه المنتهى ؛ ولا منتهى له ، وحكمته فوق كل حكمة ؛ ولا حد لها .

فجاء دين الله تعالى قيّماً مبرماً ، وجاءت شريعة الله تعالى معقولة محكمة

_ فيها كل خير وصلاح وفلاح (فتبارك الله رب العالمين) .

قال تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وأما كفوراً) .

فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما أودع فيه من القوى ، وما فيه من أمشاج مختلطة ودواعي مختلفة ، ثم إنه هداه السبيل وبين له طريق الخير من الشر ، وما فيه صلاحه وفساده ، وسعادته وشقاوته ، بواسطة الشرائع التي أنزلها على رسله صلوات الله تعالى عليهم ، فقامت الحجة ، وأضاءت المحجة ، فكانت النتيجة بعد تبصر الإنسان واختياره : (إما شاكراً وإما كفوراً) .

ج _ لو جاء القرآن الكريم إلى الناس بما ليس بمعقول لرده الكفار لأول مرة ، بحجة أنه غير معقول ، وأنه مخالف للعقول ، لأنهم كانوا في غاية الحرص على رده ونقضه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا ذلك ، لأنهم عقلوا وعرفوا أن ما جاء به هو الحق .

قال تعالى : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) ، وقال تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ، وقال تعالى : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم،وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون).

والمعنى أنهم يعلمون علماً جازماً أنها الحق ، ولكنهم يجحدون بعد علم ، ولا يعترفون عصبية وكبراً .

وقال تعالى : (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

والمعنى أنهم يجادلون في آيات الله تعالى بغير برهان ولا حجة ، بل

يدفعون الحق الذي جاءهم به القرآن ، بالباطل الذي عندهم ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، وهم في ذلك لا يبلغون ما يبتغونه من إجحاد الحق القرآني ، وإعلام باطلهم المختلف لأن الحق لم يزل مرفوع الراية ، وأما الباطل فهو موضوع الغاية من البداية إلى النهاية فاستعذ بالله من حالهم .

فعنادهم الناشئ عن كبر النفس ، والعصبية الجاهلية ، ذلك أعماهم وأصمهم ، فراحوا يفترون الكذب ، ويصفون القرآن الكريم بأوصاف متناقضة ، وفي هذا دليل بطلان كلامهم ، وحقية كلام الله تعالى .

فتارة يقولون : هو سحر ، وتارة : فيه شعر ، وتارة يقولون عنه : مفترى ، وتارة يقولون : (إنما يعلمه بشر) ، وتارة يقولون عنه : (أساطير الأولين) .

هذا تناقض منهم لأنها أقوال كاذبة ، والكذب ليس له حقيقة حتى يثبت عليها ويستقر .

وإليك هذه الواقعة شاهداً على ما سبق :

روى الحاكم في (مستدركه) والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه صلى الله عليه وسلم القرآن فكأنه _ الوليد _ رقّ له _ أي : رقّ قلب الوليد لعظمة القرآن .

فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له : _ أي للوليد _ : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله .

فقال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرهم مالاً .

قال أبو جهل : فقل : فيه _ أي في القرآن _ قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، أو أنك كاره له .

فقال الوليد : فماذا أقول : فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن ، فوالله ما يشبه الذي يقول _ محمد _ شيئاً من هذه ، والله إن لقوله _ أي قرآنه الذي يقرأه _ لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وإنه ليعلوا وما يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه _ أي حتى تقول غير الذي قلت .

قال الوليد لأبي جهل : فدعني حتى أفكر _ ففكر فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بأثره _ أي ينقله محمد عن غيره _ فأنزل الله تعالى في ذلك : (ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً) الآيات .

فلقد عرفوا الحق الذي جاء به القرآن الكريم وعقلوه ، واعترفوا به وأقرّوه ، ثم جحدوا بآيات الله تعالى ظلماً وعناداً ، وتعصباً لجاهليتهم .

وهذا كما هو في المشركين كذلك الأمر في كفرة أهل الكتاب قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) _ أي يعلمون الحق الذي جئتهم به علماً جازماً ولكنهم يكتمونه .

د_ إن من تدبر في آيات القرآن الكريم يرى فيها أنواعاً من البينات

والبراهين العقلية التي يعلمها الله تعالى عباده المؤمنين ليقيموا بها الحجة على أهل الباطل ويردوهم إلى الحق المبين :

فيقول سبحانه في برهان التوحيد والرد على المشركين : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) الآية .

ويقول : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) الآية _ وسيأتي توضيح هذه الأدلة في موضعه إن شاء الله تعالى .

ويقول سبحانه في سياق الرد على الزاعمين أن هذا القرآن الكريم تلقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أعجمي زعموه : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) .

وفي سياق الرد على من زعم أن هذا القرآن الكريم جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كتب من قبله يقول سبحانه : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

ويقول في ذلك أيضاً : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) .

ويقول سبحانه في الرد على من زعم أن هذا القرآن الكريم قد افتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

ويقول سبحانه : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

فتحداهم وأثبت عجزهم في حالهم ، وسجل عليهم عجزهم في مآلهم ، وعجز كل من يأتي بعدهم ، ثم أنذرهم عذابه لعلهم يرجعون إلى صوابهم واعترفوا بحقية كتاب ربهم سبحانه .

ويقول سبحانه في سياق الرد على أدعياء الربوبية : (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر) .

ويقول سبحانه في الرد على منكري الخالق الصانع : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) .

ويقول سبحانه في الرد على منكري البعث والقائلين بعدم القدرة على ذلك : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم _ أي : يعيدهم _بلى وهو الخلاق العليم) .

فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، والذي قدر على خلق الأكبر فهو من باب أولى قادر على إعادة الأصغر بداهة _ وسنأتي على توضيح هذه الأدلة في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ه _ إن كل من قرأ القرآن الكريم يرى أن الله تعالى حين يذكر آيات الإيمان والتوحيد ينبّه العقلاء إلى التعقل والتفكر فيها ، كما أنه سبحانه حين يذكر آيات التشريع يحث عباده على التعقل بما فيها :

فيقول سبحانه في آيات التوحيد : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السماوات الأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) والمعنى إن قضايا التوحيد والإيمان معقوله

: فاعقلوا .

ويقول سبحانه في آيات التشريع بعد ما ذكر أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والقتال في سبيل الله ، وأحكام الخطبة والزواج ، وأحكام الطلاق والعدة ، وغيرها من الأحكام التشريعية ، يقول سبحانه بعد ذلك كله : (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) كما في سورة البقرة .

إذاً فالقرآن الكريم جاء ينادي العباد العقلاء ويخاطبهم في إطار العقل ومحيط الفكر ليعقلوا ما نزل به من الأوامر المعقولة المحكمة المدلل على حقيتها بالأدلة القاطعة ، فإذا عقلوا ما جاء به القرآن الكريم صار عندهم علم جازم بحقية ما جاء به وما فيه من مصالح العباد وسعادتهم ، فيدخلون في دائرة العلم الجازم الذي ينتهي بصاحبه إلى كل خير ويبعده عن كل شر قال تعالى : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) أي : يعقلون فيعلمون ، وإن العلم الجازم ليحمل صاحبه على العمل بمقتضى ما علمه ، ما لم يصده عن ذلك عناد الكبر أو اتباع الهوى ، وهذان أعظم أسباب صد الناس عن الاعتراف بالحق والإذعان له ، فإن العلم الجازم بحقية الحق ليحملن صاحبه على الإذعان للحق ويلزمه بذلك .

قال تعالى في قوم صالح : (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) _ أي : هل آمنتم على علم قطعي بذلك بعد أن عقلتم وفكرتم وتبصرتم ، أم أخذتم بالمسايرة والمغافلة والمغالطة _ ، (قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون) أي : نحن على علم جازم بحقية رسالته ، وحقية ما جاء به ، وعلمنا بذلك حملنا على

الإيمان بما أرسل به ، وما وصلنا إلى العلم الجازم إلا بعد تعقل وتبصر . فالعلم الجازم يحمل صاحبه على العمل بموجبه ما لم يحجبه العناد أو الهوى كما تقدم ، قال تعالى في الكفار : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ؛ فهذا هو عناد الكبر ، وقال تعالى : (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) ؛ وهذا هو اتباع الهوى _ وإن اتباع الأهواء يؤدي إلى الفساد قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) .

فقد تبين لك أيها العاقل مما تقدم ذكره أن ما جاء به القرآن الكريم هو المعقول المحكم فما على العقلاء إلا أن يعقلوا ، وما على الحكماء والفطناء إلا أن يتدبروا ويتفكروا ، لأن في آياته الكريمة منار العقول ، ومنابع الحكمة ، ومعاقل العلم ، ومستنبط الفهم ، ومواقع التذكر ، وميادين التفكر ، وأجواء الاعتبار والتبصر ، فإذا عقلوا علموا انه الحق ؛ فيجب عليهم أن يخلعوا ربقة الهوى ويؤمنوا به .

ولذلك وبّخ سبحانه الذين لا يعقلون ما جاء به هذا الكتاب الكريم فقال سبحانه : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) .

ونعى سبحانه على الذين يعرضون عنه ولا يستمعون إليه ويعقلون ما جاء به فقال سبحانه : (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) .

وهذا شأن المبطل الضال ، والجاحد المعارض ، والمعاند الذي لا يريد الحق ، فإنه يعرض عن كل ما يهديه إلى الحق ، ولا يسمع القول الحق ، ولو أنه ألقى سمعه إليه ، وأحضر قلبه لديه ، لاهتدى به ، وانجذب إليه ؛

فإن الحق يجذب القلوب والعقول التي تبتغي الحق وتميل إليه .

فمن قصد الوصول إلى معرفة الحق فطريق الحق واضح مبين في القرآن الكريم ، ولكن الواجب على القاصد أن يتجرد من ثوب الكبر النفسي ، ويتباعد عن الهوى النفسي ، فلا بد له أن يعرف الحق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم هو الحق ، ولا بد أن يعترف به .

أما إذا لم يتجرد من ثوب كبريائه ، ولم يتجنب داعية هوى نفسه ، فإن القرآن يوصله إلى معرفة الحق لا محالة ، ولكن كبر نفسه وهواها يصدانه عن الاعتراف به ، قال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) _ أي : أن سبب عدم استجابتهم وإقرارهم واعترافهم ليس هو عدم معرفة الحق ؛ بل يعرفونه لأن الحق بينٌ أبلج ، ولكن سبب ذلك اتباع أهوائهم المنحرفة .

وقال تعالى : (إن الذين يجادلون بآيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) .

وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) _ أي : يعلمون أنه الحق،ولكن لا يعترفون ولا يقرون به جحوداً وكبراً _ (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) .

الوجه الثاني :

إن القرآن الكريم جاء ينادي العقلاء بالتبصر ببصائره وبالتدبر في آياته وبالتذكر بذكرياته ويحذر من الغفلة والغشاوة والعماوة :

قال الله تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي

فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) .

وهذه البصائر القرآنية هي بيّنات القرآن وأدلته وحججه وقد بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له : (لتبين للناس ما نزل إليهم) .

فهي بصائر تبصر القلوب وتنور العقول كالنيرات المنيرات لأعين البصرية ، فمن فتح عينيه للنور اهتدى للأمور ومشى سالماً آمناً دون تخبط ولا تخليط ، ومن تعامى بأن أغمض عينيه سقط في المهاوي وهلك في المهالك ، قال تعالى : (أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر ألو الألباب) .

والعمى الذي يجعل صاحبه شقياً في الدنيا والآخرة هو عمى القلب عن نور الرب النازل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

وقال سبحانه : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر ألو الألباب) ، فأخبر سبحانه أنه انزل هذا الكتاب الكريم للتذكر والتفكر فيما جاءهم به ، وخص سبحانه بالتذكر والتفكر أهل العقول السليمة وهم ألو الألباب ، لأن شأن من عقل دلائل الخيرات وطرق السعادات أن يسلك مسالكها وينتهج مناهجها ، بغية الوصول إلى لبابها وكمالها وقمم عليائها .

جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر ألوا الألباب) فقال : وما تدبر آياته إلا اتباعه بعقله ، أما والله ما هو _ أي : التدبر _ بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن احدهم ليقول : إني لأقرأ القرآن وما أسقط منه حرفاً ،

وقد والله أسقطه كله ،فما يرى القرآن في خلق ولا عمل . ا ه _ أي : بل الواجب أن تظهر آثار القرآن في خلق القارئ وعمله .

وقد ذم الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن الكريم وشنع عليهم ، فقال سبحانه : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، وقال سبحانه : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

وأما التذكر والانتفاع بذكرياته فقد قال سبحانه : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

وفي هذا خبر من الله تعالى مؤكد عن أمر عظيم الوقع ، حقيق النفع إذا توفرت شروطه لا يمكن تخلفه ، وفي هذا نوع من التحدي لمن لا يثق بذلك ويصدقه .

وذلك أن من كان له قلب ومن شأنه أن يعقل به ، وأحضر قلبه وجمعه على تفهم هذا القرآن وتدبره ، ولم يتسبب في إعراض قلبه وتفرقه ، فإنه لا بد أن ينتفع بهذا القرآن الكريم ، وتحصل له الذكرى التي تنفعه في الأولى والأخرى .

كما أنه لو ألقى السمع وأصغى مقبلاً على هذا القرآن الكريم ، فلا بد من أن ينتفع به وتحصل له الذكرى والطمأنينة القلبية ، والقناعة العقلية .

وقد قال العلامة المفسر ابن عطية : والقلب هنا _ أي في قوله تعالى : (لمن كان له قلب) قال : هو عبارة عن العقل ، إذ هو _ أي : القلب _ محله . ا هـ .

يعني أن القلب محل العقل ، فأطلق المحل وأراد ما حل فيه وهو العقل .

وفي هذه الآية الكريمة بيان أصناف الناس بالنسبة لتذكرهم بالذكر القرآني وانتفاعهم بذكراه .

فالصنف الأول : هو من كان له قلب زكي واعٍ بحيث إذا جاءه أدنى تذكير وتنبيه تذكر وازدجر ، واهتدى للحق واعتبر ، وسلك سبيله فهو سليم الفطرة ، صحيح الفكرة ، كامل الاستعداد ، قابل للحق والإمداد ، إذا تجلى له نور الله تعالى في كلامه انجذب قلبه إليه ، واستسلمت نفسه مطمئنة لديه ؛ وهذا حال كمّل الناس الذين استجابوا لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسمعهم كلام الله تعالى ، وإلى هذا الصنف يشير قوله سبحانه : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) .

والصنف الثاني : من إذا جاءه الهدى وتلي عليه كلام الله تعالى يحتاج إلى إلقاء سمعه ، وإحضار قلبه ، وجمع فكرته ، وبذلك يتبين له وجه الحق الذي جاء به القرآن الكريم فيعلم حقيته وصدقه ، ويؤمن به ، ويتشربه قلبه ويذوق حلاوته ؛ وإلى هذا الإشارة في قوله تعالى : (أو ألقى السمع وهو شهيد) .

والصنف الثالث : من ليس له ذلك القلب ، ولا عنده ذلك الإلقاء السمعي ، ولا الإصغاء ، فهذا النوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن ، فلا بد أنهم يستجيبون لو بعد حين ، كما يتضح ذلك في كثير من الوقائع الآتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى .

والصنف الرابع :هم المعاندون المعارضون الذين يدعون إلى الحق عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن ، والمناظرة المدعومة بإقامة الأدلة و الحجج فإذا هم يعارضون ويعاندون بعد ما تبين لهم الحق وظهر برهانه،

فهؤلاء بعد ما تقوم عليهم الحجة ، وتضيء لهم المحجة يصار بهم إلى الجدال بالغلظة ، والأخذ بالشدة والعنف لاستخراج عنادهم ، المانع لهم عن قبول الحق وسلوك طريقه .

الوجه الثالث : القرآن الكريم يعلن للناس أنه جاءهم بالبرهان والنور والبيان ، قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا) وفي هذا الإعلام والإعلان العام يتحدى سبحانه جميع عقلاء الأنام ، وذلك أن الله تعالى لما أعلم عباده بأن هذا القرآن الكريم جاء بالبرهان القاطع ، والنور الساطع فهو بذلك يتحدى كل من تحدثه نفسه بالمعارضة أو المناقضة لبرهانه ، أي فمن استطاع أن ينقض برهانه ، ويرد حجته فليتقدم ببرهانه وحجته ، وفي هذا منتهى الغلبة والإفحام لكل جاحد _ ألد الخصام .

كما قال سبحانه : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أي : هذه براهين رب العالمين فهاتوا أيها المخالفون المنكرون برهانكم على ما تدعون إن كنتم صادقين .

وفي هذه الآية الكريمة أيضاً بيان وتنبيه إلى أن ما جاء به القرآن الكريم فهو ثابت بالبرهان القاطع الذي لا ينقض ، لأنه برهان من رب العالمين ، أقامه حجة على جميع العباد : على مختلف أجيالهم وطبقاتهم ومستوياتهم وتفاوت ثقافاتهم .

ذلك لأن الله تعالى كما أنه هو الغالب في قدرته وإرادته وسلطانه ، فهو الغالب في حجته وبرهانه ، وليس بمغلوب جل وعلا ، قال سبحانه : (قل : فللَّه الحجة البالغة) وجميع حجج المخالفين له داحضة .

ومن ثم أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن جاهزاً بقوة حجته ، وصدق بينته فقال له سبحانه : (قل إني على بينة من ربي وكذبتم به) _ أي : كذبتم بعدما بان لكم نور مبين وهو القرآن المعجز ، وما جاء به من البينات والحجج التي تجعل العاقل على يقين وبصيرة ، دون شك وعماوة ، وفي هذا يقول سبحانه لحبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وفي هذه الآية الكريمة إعلان أيضاً بوضوح سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، وإشراق نورها ، وذلك بسبب قوة أدلتها وضياء بيّناتها .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم:(تركتكم على مثل البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك) .

وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوَّفه .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (الفقر تخافون ؟ والذي نفسي بيده لتصبّنّ عليكم الدنيا صبّا ، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه ، وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء : ليلها ونهارها سواء) .

قال أبو الدرداء : صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء .

الوجه الرابع :

الله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجاهد بالقرآن قال الله تعالى : (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) .

وجهاد الكفار بالقرآن هو جهادهم بحججه ، ومجادلتهم بإقامة بيناته ، وهذا

هو جهاد اللسان بالحجة والبرهان ، وهو أكبر وأشد على المخالفين من جهاد السيف والسنان ، ولذا سماه الله تعالى جهاداً كبيرا .

وهذه الآية الكريمة تدل على أمور هامة ومن أهمها ما يلي :

الأول : الأمر بمجادلة المنكرين ومجابهتهم بالبينات والحجج المزيلة لشبهتهم ، والمبطلة لمزاعمهم ، والدامغة لأدلتهم ، حتى تزول شكوكهم وشبهاتهم ، ويتسرب نور الإيمان إلى قلوبهم ، فتذهب ظلمات الشكوك والشبهات بأنوار الحجج والبينات .

الثاني : قوله سبحانه : (وجاهدهم به) فيه دليل صريح على أن سيف حجج القرآن هو سيف باتر قاطع ، يقطع دابر حجج الكافرين ، ويدحض شبهاتهم ويبطل ضلالاتهم على مختلف ألوانها وأنواعها ومنشأها ، وأنه ما من ضلالة ولا شبهة ولا باطل إلا وفي هذا القرآن الكريم رد عليه ، وإبطال له بحجج معقولة ، وبينات مقبولة ، يعلم ذلك من تدبر آيات الله تعالى وتفكر فيها .

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجاهد بالقرآن جميع الكافرين فقال له : (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً) ، _ أي : جاهد بهذا القرآن جميع الكافرين على مختلف مللهم ونحلهم ، وأنواع كفرهم وضلالاتهم ، واختلاف اتجاهاتهم وشبهاتهم .

فلولا أن سيف حجج القرآن قاطع ومدمر لجميع تلك الأباطيل والضلالات ، ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد به الكافرين على مختلف شبهاتهم وضلالاتهم .

وهل يتصور العاقل أن الله تعالى يعطي رسوله صلى الله عليه وسلم سيفاً

مثلوماً غير قاطع ، ثم يأمره أن يجاهد به جميع الكفار و المنكرين ، فإن ذلك يعود على دعوته بالنقض والخذلان .

كلا ثم كلا _ بل لما أمره الله تعالى بذلك علمنا يقيناً أن في القرآن حجة قاطعة مفحمة لجميع أولئك ، وأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، كما اعترف بذلك الجاحدون .

الثالث : من هنا يعلم العاقل أن القرآن الكريم جاء بالبراهين والحجج الدامغة للأباطيل والأضاليل ، مهما تنوعت أسبابها ، واختلف ألوانها على مدى الأيام .

وقد جادل النبي صلى الله عليه وسلم جميع طوائف الكفار ، وأقام عليهم الحجج المفحمة لهم _ كما أمره الله تعالى في هذه الآية ، وفي قوله : (وجادلهم بالتي هي أحسن) .

وكانت نتيجة ذلك :

أن منهم من اهتدى وأسلم .

ومنهم من عاند ولكنه جنح إلى السلم والرضى بالذمة ودفع الجزية كما عليه أهل الكتاب .

ومنهم من عاند وعارض وقد قامت عليه الحجة وأضاءت له المحجة ، فحمله كبر النفس وعتوها على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد ما عجز عن رد حجج رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبطال أقواله ، حينذاك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب عليهم بعد ما بارزوه بالمحاربة ، فما خالفه صلى الله عليه وسلم أعداؤه إلا عناداً منهم ، وميلاً إلى المكابرة بسبب الكبر بعد اعترافهم بصحة حجته وصدق دعوته .

ومن هنا يعلم العاقل أن هذا الدين إنما قام على دعائم الحجج والبراهين ، التي فيها ابتلاج الحق وزهوق الباطل ، قال تعالى : (قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

وأما قوله تعالى في الآية الكريمة : (لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) ، فهذا بعد إقامة الحجة عليهم .

والمعنى أنه لا خصومة بعد ما ظهر البرهان ، وقامت الحجة ، واتضح الدليل لأنه لم يبق بعد للاحتجاج والمخاصمة فائدة .

فمتى وضح الحق واستبان ، وظهر نور البرهان ، لم يبق إلا الإقرار بالحق والاعتراف به ، فمن تكبر وعاند يقال له : (الله يجمع بيننا)_ أي : يوم القيامة فيقضي بالحق للمحق على المبطل (وإليه المصير) ، وقال تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) .

الوجه الخامس :

إن الله تعالى خاطب العباد من قبل ألبابهم ، واحتج عليهم بما ركب فيهم من عقولهم ، فكل بالغ من الجن والإنس ممن أمره الله تعالى ونهاه ، ووعده وأوعده ، بإرسال النذر وإنزال الكتب وما فيها من الآيات التدوينية المتلوة ، وبما أشهده من آثار آياته التكوينية _ فإن الحجة على العاقل قائمة ، وذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بالعقل ومعرفة البيان ، ولذلك قال الله تعالى : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) وقال سبحانه : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم) .

وأخبر سبحانه عن الكفار وعنادهم بعد ما ظهر الحق ، وجاءهم الهدى من

الله تعالى وعقلوه ثم أعرضوا عنه معارضين ومعاندين ، فقال سبحانه : (وأما ثمود فهديناهم _ أي بينا لهم طريق الحق من الضلال على وجه يعقلونه _ فاستحبوا العمى على الهدى) .

وقال تعالى في الجاحدين للحق الذي بينه الله تعالى لهم ، وكفروا به بعدما عقلوه وعلموه ، قال تعالى فيهم : (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) _ أي : ينكرونها بعدما عرفوا حقيتها ، ويكذبون بها بعدما عقلوها _ (وكانوا بها يستهزئون) .

وقال سبحانه في الجاحدين من أهل الكتاب بعدما عرفوا الحق الذي جاءهم به القرآن الكريم ، وراحوا يحرفونه : (وقد كان فريقا منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون _ أي : يعلمون علماً جازماً بحقية كلام الله تعالى وآياته ، ويعلمون بطلان ما حرفوه وبدلوه .

وذلك لأن كل من استمع إلى آيات الله تعالى القرآنية وأشهدها قلبه لا بد أن يعلم حقيتها ، ويعرف صدق ما جاءت به ، لأنها جاءت آيات لقوم يعقلون ، ولقوم يعلمون ، وآيات لأولي الألباب ، كما أن كل عاقل أجال عقله فيما يشاهده ويراه من آيات الله التكوينية فلا بد أن يعلم علماً جازماً بأن الله تعالى هو الحق المبين .

قال تعالى : (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) .

وقال تعالى : (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

ومن ثم أخبرنا الله تعالى عن اعتراف الكفار المعاندين _ يوم القيامة _ بتفريطهم وذنبهم وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم وظلموها ، قال تعالى : (كلما ألقي فيها _ أي : النار _ فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

فلو أنهم ألقوا أسماعهم إلى ما يتلى عليهم من آيات الله تعالى ، وأشهدوها قلوبهم لاهتدوا ، أو أنهم عقلوا عن الله تعالى أوامره التي في كتابه النازل على رسوله صلى الله عليه وسلم وتبصروا حكمتها ومنافعها وأنصفوا في مواقفهم معها لعرفوا يقيناً أنها الحق ولاهتدوا إلى سبيل الرشاد ، ولكن صدهم عن ذلك كله الكبر والعناد ، فسلكوا طريق الشر والفساد ، فالعاقل هو الذي يعقل عن الله تعالى أمره ويعمل في حكمة شرع الله تعالى وفكره.

روى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و آله وسلم قال : ((كم من عاقل عقل من الله تعالى أمره وهو حقير عند الناس ، ذميم المنظر ينجو غداً ، _ أي يوم القيامة ، وكم من ظريف اللسان ، جميل المنظر عند الناس يهلك غداً يوم القيامة)) .

وقال تعالى محتجاً على الكفار حين يدخلهم النار : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون) ، فاحتج عليهم بعقولهم .

ومن ثم ترى أن القرآن الكريم يهيب بالعقلاء حين يذكر لهم آيات تكوينية

وتشريعية ، يهيب بهم أن يهملوا عقولهم ويعرضوا عن التفكر فيها والتعقل فيقول سبحانه (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) . أي : أفلا تعقلون ما فيه من التذكير وما ذكر لكم فيه ، وقال سبحانه : (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) ، والمعنى أين تصرف عقولكم وتؤخذ ، هلا استرجعتم عقولكم وعقلتم بها ، وتفكرتم فيما خلق الله تعالى من شيء ، فإن كل شيء قل أو كثر ، صغر أو كبر ، يدل على الله تعالى ، وعلى سعة علمه وكمال حكمته وقدرته سبحانه .

الوجه السادس :

إن الله تعالى وصف القرآن بالحكمة والعزة ، وهذا يقتضي وضوحه في الحجة وقوته في الدليل قال الله تعالى : (يَس والقرآن الحكيم) ، وقال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ، وقال تعالى :) آلر تلك آيات الكتاب الحكيم) :

فقد بين الله تعالى لعباده أن هذا القرآن نزل من لدن حكيم عليم ، وأنه القرآن الحكيم ، وأنه الكتاب الحكيم .

والمعنى أن هذا الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فهو المحكم بمبانيه ومعانيه ، وكلماته وبيناته ، لا خلل في ذلك ولا نقص ، ولا سبيل إلى معارضة ذلك ولا نقض ، فهو الرصين الحصين ،والحق المبين. وهو الكتاب الحكيم _ أي : ذو الحكمة ، الجامع لأصناف الحكمة ، فجميع ما جاء به فهو الحكمة التي فاقت كل حكمة ، بل هو _ أي : القرآن الكريم كما أخبرنا الله تعالى _ إليه المنتهى في الحكمة قال تعالى : (حكمة بالغة فما تغن النذر) ، وحق لكتاب جاء بالحكمة البالغة أن تكون حججه دامغة

، وأدلته قاطعة وإرشاداته نافعة ، لأن الحكمة منبع كل خير ، ومنار كل بر : (ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) ، وإن كتاب الله تعالى هو مجمع الحكم ، ومنبع العلم وميدان الفهم .

وكما وصف الله تعالى الكتاب بالحكيم وصفه سبحانه بأنه كتاب عزيز .

قال تعالى : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ، قال ابن عباس في معنى : (وإنه لكتاب عزيز) قال : ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله .

والمعنى : أن هذا الكتاب هو عزيز لا يدانى ، ولا يساوى ، ولا يسامى بل له التفوق المنيع والمجد الرفيع ، والهيمنة والسلطنة على جميع ما سواه من الكتب ، فعزته تقتضي تعاليه وغلبته على غيره كما هو مفهوم العزة لغة ، ولذا كان من شأن هذا الكتاب العزيز أنه كما وصفه الله تعالى : ((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) _ أي : لا يمكن أن يتسرب إليه أي باطل .

وهذا العموم المفهوم من وقوله تعالى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) يتناول أموراً متعددة نذكر جملة منها .

الأول : لا يأتي الباطل إلى براهينه وحججه ، والمعنى ، أن حجج القرآن وبراهينه كلها حق وحقيقة ، فهي تبطل كل ما خالفها من حجة وبرهان ، وتثبت بطلان تلك الحجة والبرهان المخالفين للقرآن الكريم .

أما حجج القرآن وبراهينه فإنها لا تبطلهما أي حجة ، وأي برهان ، لأنه : (تنزيل من حكيم حميد) ، فحججه غالبة غير مغلوبة ، صادعة غير مصدوعة ، ودافعة غير مدفوعة ، : (قل : فلله الحجة البالغة) .

الثاني : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) بتبديل أو تحريف كلمة أو زيادة فيه أو نقص ، فهذا الباطل بألوانه كلها لا يمكن أن يتسرب إلى هذا الكتاب العزيز ، فإن الزيادة باطلة ليست منه ، ومبطلة لإعجازه ، لأن الزيادة لا تبلغ حد الإعجاز باعتبار أنها من كلام البشر ، والنقص منه أيضاً باطل لأنه يبطل ما هو حق ثابت فيه ، ومخل بإعجازه لأن نقص كلمة أو جملة تخل بإعجاز الباقي ، ومن البديهي أن إعجاز القرآن هو الوصف الملازم الذي لا ينفك عنه كملازمة العربية له .

فلو أنك جردت القرآن الكريم عن العربية لخرج عن كونه قرآناً ، لأن الله تعالى قال : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) ، وقال : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) .

وكذلك صفة الإعجاز لا تنفك عنه ، فإن الله تعالى تحدى به الأولين والآخرين بإعجازه ، وأعلن عجزهم عن الإتيان بمثله لإعجازه قال تعالى : (قل : لئن اجتمعت الجن والإنس)الآية،فلو زيد فيه أو نقص لأخل ذلك بإعجازه ولأمكن الإتيان بمثله .

الثالث : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أي : لا يأتي الباطل إلى أحكامه التشريعية ، فإنها قائمة على عدله وحكمته ، فجميع الأحكام التي شرعها مستندة إلى حكمته سبحانه الإلهية العالية التي لا تدانى ولا تسامى ، وإن حكمته سبحانه هي مقتضى علمه ، وعلمه محيط بكل شيء وهو بكل شيء عليم .

الرابع : لا يأتي الباطل إلى إخباراته الغيبية ، فما أخبر عنه مما مضى وهو المراد بقوله : (من بين يديه) _ فهو واقع حقاً ، وما أخبر عنه أنه

سيكون وهو المراد بقوله : (ولا من خلفه) فلا بد أن يكون ويقع ، وإن تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما مضى لهو أكبر دليل على تحقق وقوع ما أخبر عنه فيما سيكون .

وقد أقرت جميع الأمم والطوائف ما أخبر عنه القرآن الكريم من الوقائع السابقة ، ولم يجدوا سبيلاً إلى إنكار شيء منها ، ولو أنهم استطاعوا تكذيب شيء منها لاحتجوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعارضوه ، وقالوا : أنت تقول بوقوع كذا ولم يك شيء من ذلك _ فتكون لهم الحجة .

ولو أن شيئاً من ذلك لم يك مسلماً عند الأمم ومعلوماً لديهم في جملة الإخبارات التاريخية الماضية لما جاءهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العاقل الحكيم لا يفتح على نفسه باب نقد واعتراض لا يستطيع إغلاقه ، فكيف يعلن لهم وقوع أمور لم يثبت وقوعها ؟ ! ! .

لا ولا ، وإنما جاء القرآن الكريم يخبر عن أمور واقعية لا يستطيع أحد إنكارها : لا من أهل الكتاب ، ولا مشركي العرب ؛ ولا غيرهم .

الخامس : لا يأتي الباطل إلى الحقائق العلمية التي كشف عنها القرآن الكريم أو أقرها مهما امتدت العصور ، وارتفعت الفنون ، وتقدمت العلوم ، واتسعت دائرة الاكتشافات العلمية ، والمخابر والمكبرات والأجهزة الفنية _ كما سيتضح ذلك بعد إن شاء الله تعالى .

وهذه الوجوه التي ذكرناها حول الآية الكريمة كلها واردة عن السلف الصالح ، وإن عموم الآية ليشملها كلها و غيرها ، فإنها غير متنافية بل متنوعة متلازمة ، وإن أمثال هذا في القرآن الكريم كثير كما هو مفصل

في أصول التفاسير .

وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها إعلان التحدي العام لجميع العالم بأن لم يوقن بذلك ولم يؤمن بخبر الله عن ذلك ، وراح تحدثه نفسه بالمعارضة والإنكار _ فليتقدم لنقض شيء من تلك الفصول الداخلة تحت عموم : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولا شك أنه يرجع بعد العجز خاسئاً وهو حسير .

فإن الأمر الواقع قد أثبت حقية ما أخبر عنه القرآن الكريم ، وصدق ما جاء به من البينات والأدلة ، ولم يستطع أحد من الحكماء ، ولا العقلاء ، ولا أدعياء الثقافة والحصافة : أن يأتوا بدليل قاطع يبطلون به ما أثبت القرآن الكريم حقيته ، أو يحقون ما أثبت بطلانه وفساده ، أو يأتوا بما هو أهدى للأمة وبما هو أصلح لها من الأحكام التشريعية الإلهية الكافلة للمصالح البشرية ، وفي ذلك كله تتجلى معاني : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

الوجه السابع :

إن الله تعالى سمَّى هذا القرآن الكريم : قرآناً ، وهدىً ، وبياناً ، وتبياناً لكل شيء ، ونوراً ، وبصائر ، ودعا سبحانه جميع العقلاء إلى التفكر فيما جاء به،والتذكر والتبصر والتدبر والاعتبار، وفي هذه حجة الله تعالى على جميع من كانوا ، وأين كانوا ، ويتضح ذلك من وجوه متعددة :

الأول : إن في قوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) .

وقوله : (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وقوله تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) .

وقوله تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم) .

وقوله تعالى : (هذا بيان للناس) .

وقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) .

إن في ذلك كله إعلاناً من الله تعالى عاماً ، وإعلاماً لجميع عباده بحجية هذا القرآن الكريم ، وقوة برهانه، ووضوح بيانه ، وظهور تبيانه ، وحقية هديه ، وهيمنة سلطانه .

وجل الله تعالى الحكيم العليم وعز عن أن يعلن ذلك لعباده ثم تكون حقيقة الأمر وواقعه خلاف ذلك _ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فإن أدنى من له حظ من العلم والحكمة يتعالى عن ذلك ، فما ظنكم برب العالمين ، الذي نزل القرآن بعلمه وبحكمته ، قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)، وقال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) .

الثاني : إن في ذلك الإعلان عن القرآن تحدياً صريحاً لجميع العقلاء والحكماء ، والفطناء والعلماء ، وحملاً لهم على التذكر والتدبر في تلك البينات والحجج ، والاعتبار في تلك البصائر ، والتفكر فيما هدى إليه القرآن الكريم .

فلا شك أنهم بعد التفكر والتدبر ، يقفون أمامه موقف المقرّ المعترف المحجوج ، ومن ادعى غير ذلك فليتقدم بحجته وبرهانه ، وليرد ما أثبته هذا القرآن الكريم إن استطاع لذلك سبيلا ، وأنى لهم ذلك : (فما بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) ؟ .

الثالث : لذلك دعا القرآن الكريم جميع العقلاء إلى التفكر فيما جاء به ،

والتذكر والتدبر والتبصر والنظر والاعتبار .

ومعاني هذه المدارك متقاربة ، تجتمع في شيء واحد ، وتنفرد في شيء واحد ، وهي متلازمة ، وينتهي بعضها إلى بعض ، ويوصل بعضها إلى بعض .

فالتفكر هو : استعمال الفكرة في الأمر الذي يفكر فيه .

والتذكر هو : إحضار ذلك الأمر عنده ، مصحوباً بإحضار العلم حول ذلك الأمر ، وما يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه .

وقد يطلق النظر على كل من التفكر والتذكر ، ويقال : نظر فيه _ أي : فكر وتذكر ،لأن النظر في الشيء يحتاج إلى إحضار القلب والتفاته إلى المنظور فيه .

وأما التدبر فيه فهو : النظر في أواخر الأمور وعواقبها قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

فالتدبر في القول يتطلب النظر في أوله وآخره ، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة ، مع التفهم والتبين للمعاني .

وأما الاعتبار فهو : افتعال من العبور ، لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الأمر الذي قد فكر فيه إلى معرفة أواخره وهو المقصود من الاعتبار ويسمى : عبرة ، قال تعالى : (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) ، وقال تعالى : (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) ، وقال تعالى : (فاعتبروا يا أولي الأبصار) .

وقد نوع الله تعالى الآيات وصرفها لعباده ليقيم عليهم الحجة ويبين لهم المحجة قال تعالى : (وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم

يعلمون) ، فهو سبحانه يذكر لعباده الآيات الآفاقية ، والنفسية ، المشهودة بالعيان ، والمذكورة بالجنان .

ومن هذه الوجوه المتقدم ذكرها يتضح لك أيها العاقل : وجوب التعرف إلى كتاب الله تعالى ، والفكر فيه ، والتدبر والاهتمام كل الاهتمام بتعلمه وتفهمه ، والاطلاع على براهينه وبيناته ، والاستبصار بأنواره ، والاعتبار بأخباره ، والاتعاظ بمواعظه ، والإتمار بأوامره ، والانتهاء عما نهى عنه ، وانتهاج مناهجه القويم ، والسير على صراطه المستقيم _ اللهم وفقنا جميعاً لذلك آمين .

وها أنا أذكر بعض الكلمات التي تنهض بالهمم المتقاعسة ، وتقوي العزائم المتخاذلة ، وتدفع بالعاقل نحو كتاب الله تعالى ، والإقبال على تفهمه تدبره إن شاء الله تعالى بعد استكمال الكلام على هذه الوجوه .

الوجه الثامن :

من الوجوه الدالة على أن الدين جاء بقضايا معقولة ، وكلها عند أهل العقل السليم مقبولة هو : أن القرآن الكريم جاء يرسم أقوم خطة في الدعوة ، ويبين أن الناس في ذلك على أصناف .

قال الله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .وهذا الأسلوب في الدعوة هو أنجح وأصلح الأساليب ، وذلك أن الله تعالى شرع وأمر أن تكون الدعوة إلى سبيله على حسب مراتب المكلفين في قابليتهم ومقابلتهم،وتقبلهم ، وإعراضهم ، لأنهم على أصناف ثلاثة :

الأول : هو صنف اللبيب الذكي القابل للحق ،الذي لا يعاند ولا يعارض

الحق ، بل يستجيب للدعوة متى بدا له نور الحق بدون توقف ، فهذا يدعى بطريق عرض الحكمة عليه ، وإلقائها بين يديه ، فإذا بدت له أسرع إليها ، وتقبلها ، وتمسك بها ، وتعشقها _ كما وقع ذلك للصحابة الكرام حين سمعوا القرآن الحكيم من سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ ومن هذا الباب قصة أكثم بن صيفي حين أرسل ولديه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأله : (من أنت ، وما أنت وبما جئت به) ؟ .

فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك .

فقال صلى الله عليه وسلم : (أما من أنا ؟ أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) ، أي : إني أنا المعروف في شرف نسبه وحسبه فوق كل نسب وحسب .

(وأما من أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) .

فلما رجعا إلى أبيهما وأبلغاه الأجوبة وقرءا عليه تلك الآية الكريمة الجامعة ، قال : (يا بني إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً) . ا ه _ أي : أسرعوا إلى الدخول في دينه ، فإنه جامع لكل خير ، ومحذر من كل شر .

الثاني : هو صنف العاقل القابل للحق ولكن عنده نوع من الغفلة أو الكسل ، أو ضعف العزيمة ، أو ميل للشهوات المحرمة ، فإنه يدعى بطريق الموعظة الحسنة وهي : الأمكر والنهي المقترنان بالرغبة والرهبة ، وبالوعد والوعيد ، وذكر عواقب المحاسن الكريمة ، وبيان عواقب

المساوئ الذميمة ، وما يؤدي ذلك إلى ثواب أو عقاب ، ويتجلى ذلك فيما ذكره الله تعالى في مواعظ لقمان لابنه :

قال تعالى : (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني) _ وفي هذا تلطف الواعظ بالموعوظ _ (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) _ وفي هذا تنفير عما ينهاه عنه ، وإبعاد له عنه باعتبار أن الظلم سيء ذميم .

(يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله) _ أي : يحضرها للحساب يوم السؤال والحساب ، ليجزي عليها الثواب أو العقاب ، وفي هذا وعد ووعيد ،(إن الله لطيف خبير) _ وفي هذا تحذير وتخويف من جناب الله تعالى .

(يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وابر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) _ وفي هذا تنشيط لهمته ، وتقوية لعزيمته ، وإبعاد له عن الكسل والتقاعس عما أمره به .

(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً) _ أي : بطراً متكبراً (إن الله لا يحب كل مختال فخور) _ وفي هذا تخويف من عقاب الله تعالى وغضبه .

(واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) _ وفي هذا تقبيح لفعل القبيح على وجه بليغ في التنفير منه .

ولا بد في حسن الموعظة من لين المقال ، وعدم مقابلة الجافي بجفوة كما جاء في الرجل الذي استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الزنا وأمثاله : فقد روى الإمام أحمد في (مسنده) أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنا .

فقال النبي صلى الله عليه وآله سلم : (أترضاه لابنتك) ؟ فقال الرجل : لا ، فقال : (وكذلك الناس لا يرضونه) .

فقال : (أترضاه لأمك) ؟ فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : (كذلك الناس لا يرضونه) _ أي : لأمهاتهم .

فقال : (أترضاه لأختك) ؟ فقال الرجل : لا ، فقال : (كذلك لا يرضونه) _ فرجع الرجل وتاب من ذلك .

ولا بد في حسن الموعظة من ذكر عقاب المخالفة ، ومن رأفة الواعظ بالموعوظ :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أنا آخذ بحجزكم وأقول : إياكم وجهنم ، إياكم والحدود ، إياكم وجهنم إياكم والحدود ، إياكم وجهنم إياكم والحدود _ ثلاث مرات _ فإذا أنا مت تركتكم ، وأنا فرطكم على الحوض فمن ورد أفلح) الحديث .

وعن سهل ابن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إياكم ومحقرات الذنوب _ أي : صغائرها ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه).

الثالث : هو صنف المعاند المعارض بسبب شبهات ضالة تمكنت فيه أو شهوات سيطرت عليه حتى صار كالأسير بين يديها ، فهذا الصنف يجادل بالتي هي أحسن_أي : بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة والمناظرة التي يتطلبها حاله ، حتى ينتقل من تلك الحال ، ويرتقي درجات الكمال .

والمجادلة بالتي هي أحسن تستلزم أموراً :

الأول : أن تكون الحجة على الخصم قائمة على أساس مسلم عند الخصم ومقطوع به عنده ، كما أخبرنا الله تعالى عن حجج الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم في مناظراتهم للذين عارضوهم من أممهم وعاندوا قال الله تعالى لحبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله سلم ملقناً له حجته على المشركين وغيرهم من الكفرة : (قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون : لله قل : فأنى تسحرون) .

فقرّرهم بما هم به مقروّن ، واحتج عليهم بما يعرفون ، ثم وبخهم بعد إقرارهم فقال : (قل : فأنى تسحرون) أي : فكيف تخدعون عن الحق بعد ما عرفتموه وأقررتم به ، فادعيتم أن مع الله إلهاً آخر .

وقال تعالى في تعليم الحجة على من زعم أن عيسى ابن الله لأنه ولد من غير أب قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الآية . فأقام عليهم الحجة في كذبهم وأراهم البرهان بما هم به يقرون ولا يختلفون به ، وهو آدم المخلوق من غير أب ولا أم .

ونظير هذا ما جاء في الرد على اليهود حين قال قائلهم والله ما أنزل الله على بشر من شيء قال تعالى : (قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) ؟ ! فأفحمه بما هو عالم به .

وقال تعالى مخبراً عن مناظرة الخليل لأبيه : (إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) وهذا من المقرر المعروف عندهم ، لأنهم ينحتون بأيديهم ما يعبدون كما قال في موضع آخر : (أتعبدون ما تنحتون) ! .

وقال تعالى مخبراً عن مناظرة الخليل للنمرود : (قال إبراهيم : فإن الله

تعالى يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وفي هذا منتهى الإفحام للخصم ، وإخراسه عن المشاغبة في الكلام _ كما سيوضح إن شاء الله تعالى في موضعه .

وعلى هذا المنهج جاءت احتجاجات على المخالفين والمعاندين ، فكان يأتيهم بالدليل الذي يقر الخصم بصحته وحقيته ، ويحكم على نفسه ببطلان ما هو عليه ، فيذعن للحق ويعترف .

ومن ذلك ما روى الحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع الزورقي أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة_وهذا قبل خروج الستة من الأنصار _ فأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : فقلت : اعرض علي _ أي : الإسلام _ فعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام وقال لهما : (من خلق السموات والأرض والجبال) ؟ قلنا : الله .

قال : (فمن خلقكم) ؟ قلنا : الله .

قال : (فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون) ؟ قلنا : نحن .

قال : (فالخالق أحق بالعبادة أم المخلوق ، أنتم أحق أن يعبدوكم ، وأنتم عملتموها ، والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه ، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله ، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وصلة الرحم ، وترك العدوان وبغض الناس) _ أي : وترك بغض الناس .

فقلنا : لو كان الذي تدعونا إليه باطلاً لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق . _ أي : فكيف وهو حق وحقيقة ثابتة بالقطع .

فأتينا البيت _ أي الكعبة المشرفة _ فجلس عند البيت معاذ بن عفراء ،

قال رفاعة : فطفت ، وأخرجت سبعة أقداح فجعلت له منها قدحاً ، فاستقبلت البيت فضربت بها وقلت : اللهم إن كان ما يعدوا إليه محمد حقاً فأخرج قدحه سبع مرات .

فخرج قدحه سبع مرات فصحت _ بصوت عال _ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فاجتمع الناس علي وقالوا : مجنون ، رجل صبأ ، فقلت : بل رجل مؤمن .

ومن ذلك ما رواه ابن خزيمة بإسناده أن قريشاً جاءت إلى الحصين _ والد عمران _ وكانوا يعظمونه _ فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل _ أي : سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم _ فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : (أوسعوا للشيخ) _ أي : كبير السن وهو الحصين _ وكان ابنه عمران وأصحابه متوافرين .

فقال الحصين : ما هذا الذي بلغنا عنك ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم _ أي : تذمهم _ ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (يا حصين كم تعبد من آله) ؟فقال الحصين : أعبد سبعاً في الأرض وواحداً في السماء .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (فإذا أصابك ضر من تدعوا) ؟

فقال الحصين : أدعوا الذي في السماء .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (فإذا هلك المال من تدعوا) ؟

فقال الحصين : أدعوا الذي في السماء .

فقال صلى الله عليه وسلم : (فيستجيب لك وحده وتشركهم معه !! ؟

أرضيته في الشكر ؟ أم تخاف أن يغلب عليك ؟) .

فقال الحصين : لا واحدة من هاتين .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (يا حصين أسلم تسلم) _ أي : لأنك أقمت الحجة على نفسك وبدا لك نور الحق .

فقال الحصين : إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

فقال : (قل : اللهم إني استهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني) .

فقالها فلم يقم حتى أسلم .

فقام إليه ابنه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بكى وقال : (بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه ، ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقة) .

فلما أراد حصين أن يخرج قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (قوموا فشيعوه إلى منزله) .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ وتفرقوا عنه ا هـ كما في (الإصابة) .

الثاني : أن يتحمل الداعي إلى سبيل الله تعالى جفوة المعاند وإباءه وتكبره عن قبول الحق ، ويلين له المقال ويلطف الحال .

قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون يدعوه إلى ربه : (اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) .

فلما ذهب إليه يدعوه قال له : (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى مخاطباً لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم : (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له : (أسلم) فتصعب له وكبر عليه .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث ، فلقيت رجلا تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟) .

فقال الرجل : نعم .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (فوالذي نفس محمداً بيده _ صلى الله عليه وسلم_ إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت فيه ، وإني لأدعوك إلى أسهل من ذلك الطريق لو دعيت إليه) .

قال قتادة : وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له : (أسلم) فتصعده ذلك .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أرأيت لو كان لك فتيان : أحدهما : إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى إليك ،أهو أحب إليك ؟ أم فتاك الذي إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك) ؟

فقال الرجل : بل فتاي الذي إذا حدثني صدقني ، وإذا ائتمنته أدى إلي هو أحب إلي .

فقال له نبي الله صلى الله عليه وسلم : (كذاكم أنتم عند ربكم) .

قال قتادة : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له : (

أسلم) .

فقال الرجل : إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره .

فقال له نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم : (وإن كنت كارهاً) .

والمعنى أن كراهتك لم تلقى موضعها ، لأن الذي أدعوك إليه وهو الإسلام ، هو محبوب القلوب ومرتاح النفوس ، وإنما تتوهم أنه مكروه لجهلك بحقيقة ما هو عليه ولذلك يجب عليك أن تدخل فيه وتتبينه فتعرف جماله وكماله ، فحينئذ تصير محباً له ، متعشقاً فيه ، وتذهب هذه الكراهية المبينة على أوهام وخيالات فاسدة ، فكم من كاره لأمر أحبه حين عرف حقيقته .

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى لنا من مناظرة الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام لأبيه وملاطفته له ، واستعطافه إياه وتحمله غلظته وجفوته في سبيل الدعوة إلى الله تعالى .

قال سبحانه : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه : يا أبت لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) .

فانظر كيف ألان القول مع أبيه الكافر ، وساق إليه الكلام في أحسن سياق ، مع الملاطفة والأدب الجميل ، والخلق الحسن ، مستصحباً في ذلك نصيحته له قائلاً : يا أبت يا أبت ، مطالباً له أن ينتقل عما هو فيه من التمادي في الضلال ، منبهاً له ومذكراً له بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي يرعاك برحمته ونعمه ، فكيف تعبد هذا الشيطان

الذي هو عدو لله وعدو أبيك آدم وعدوك .

إلا أن الخليل على نبينا الصلاة والسلام لم يذكر من جناية الشيطان واحتقاره لآدم وذريته شيئاً ، وإنما اقتصر على ذكر جنايته وذنبه مع الله تعالى رب العالمين ، الذي يدعوه إبراهيم إلى عبادته ، وتلك الجناية هي عصيانه واستكباره عن أمر الله تعالى بالسجود لآدم .

وقد صدر تلك النصائح بقوله : (يا أبت) تلطفاً واستعطافاً ، يستميله برفق ورقة إلى جانب الحق .

وإذ بأبيه يقابل تلك الملاطفة والاستعطاف بغلظة العناد ، وفظاظة الكفر وعتو الكبر فيناديه باسمه مقابل : يا أبت _ فلم يقل له في الجواب يا بني بل قال : (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً) ، وراح يهدد ، ويرعد ، ويزمجر ، ويهجر ، ولم يك ذلك الموقف العاتي الغليظ يضعف من ملاطفة الخليل على نبينا ووعليه الصلاة والسلام بل بقي على ما هو عليه قائلاً له : (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً) .

الثالث : في شروط المناظرة : أن يتوخى الداعية إلى الله تعالى ويتقصد وضوح الحجة ، ليتجلى للخصم نور المحجة .

قال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وما أنا من المشركين) .

فجاء صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الله تعالى بالبرهان الساطع والدليل القاطع ، حتى يكون المتبع له والسائر على سبيله وراءه على بصيرة من عقيدته وطاعته ، وسعادته ونجاحه في الدنيا والآخرة ، بلا

عماوة ولا غشاوة ، ولا غواية ولا ضلالة .

وفي هذا يقول سبحانه : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) .

فمن عمي وأغمض عينيه حتى لا يرى نور الحق فإنه لا يضر إلا نفسه ، فإن نور الحق أبلج ، وظلام الباطل لجلج .

ومن ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : (تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) . رواه ابن أبي عاصم وغيره والسند حسن .

وقال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده : لقد جئتكم بها بيضاء نقية) الحديث رواه البيهقي .

ولذلك وصفه الله تعالى في التوراة يقوله سبحانه بعد الترجمة إلى العربية : قال : ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء _ أي المنحرفة عن التوحيد _ بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .

فجاء صلى الله عليه وآله وسلم بنور ساطع وبرهان قاطع ، كما وصفه الله تعالى بقوله : (وسراجاً منيراً) ، ففتح الله به القلوب المغلقة ، وبصر به الأعين العمياء ، وأسمع به الآذان الصماء ، فتجلى نور الحق ، وقامت الحجة على جميع الخلق ، فجزاه الله تعالى عنا أفضل ما جازى رسولاً عن أمته صلى الله عليه وسلم .

جزى الله عنا نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أهله ، والحمد لله الذي أنعم علينا بنبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حمداً

يوافي نعمه ويكافئ مزيده .

فصل

الواجب المحتم على كل عاقل

أن يؤثر كتاب الله تعالى

على كل كتاب سواه

إن شأن العاقل إذا سمع بكتاب لعالم كثير العلم أن يتسارع إلى قراءة ذلك الكتاب وتفهمه بتشوق وحرص ، وعزم وجد ، والذي يحمله على ذلك هو وثوقه بعلم ذلك العالم ويقينه بأن مضامين الكتاب متفوقة في العلم والبيان والتحقيق على حسب تفوق ذلك العالم الذي صنف الكتاب .

وإن فوق كل ذي علم عليماً حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى الذي هو بكل شيء عليم ، والذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي قال : (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) والذي قال : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وقد حدثنا أصدق خلق الله أجمعين وأعلمهم برب العالمين القائل : (أما والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له) .

حدثنا حديث موسى مع الخضر عليهما السلام وأنه جاء عصفور فنقر نقرة من البحر على مشهد من موسى والخضر عليهما السلام.

فقال الخضر لموسى عليهما السلام : (يا موسى : ما علمي وعلمك ، وعلم سائر الخلائق في علم الله تعالى ؛ إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر) الحديث كما في الصحيحين .

وهذا المثل في القلة يوضح لك المراد في قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

إذا فهمت ذلك أيها العاقل اللبيب ، فاعلم أن هذا الكتاب العزيز كتاب الله تعالى أنزله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وفيه من صنوف العلم ، وفصول الحكمة مالا يحيط به إلى الله تعالى .

وقد نبه الله تعالى عباده وأعلمهم بذلك ليقبلوا عليه بقلوبهم وعقولهم ، وليفقهوه ويتدبروا ما فيه ، ويدرسوه بجد واجتهاد .

فقال سبحانه : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) .

وقال : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) .

وقال تعالى : (أنزله بعلمه) .

وقال : (تلك آيات الكتاب الحكيم) _ أي ذي الحكمة وقال تعالى : (يس والقرآن الحكيم) .

فهو منبع العلم والحكمة ، فمن كان يبغي العلم والحكمة فلينظر وليتدبر في هذا الكتاب الذي فيه الكفاية ، وإليه المنتهى والغاية .

قال تعالى : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) الآية .

وقال تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك) الآية _ أي فلا تتطلع إلى شيء سواه ، فإنه يكفي عن غيره ولا يكفي عنه غيره .

وبين سبحانه لعباده أن هذا الكتاب جاء تبياناً لكل شيء مما تتوقف عليه سعادة الحياة الدنيا وصلاحها ونجاحها ، وسعادة الآخرة وفلاحها ، قال تعالى : (نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) ففيه البيان والبرهان ،

والحجج والبينات _ وإن بيان كل مبين وبرهانه على قدر علمه ، فإذا أبان الإنسان عن كائن ما كان بيانه على قدر ما يدرك منه ، وهو لا يحيط علماً به ، فلا يمكنه أن يبلغ الغاية في البيان عنه ، وإذا أخبر الإنسان عن أمر مضى ، فخبره على قدر ما بقي من ناقص علمه به الباقي في ذاكرته ، لأن الإنسان يلازمه النسيان ، على أن علمه بما أخبر هو على حسب ما بلغه وعلمه من الخبر .

وأما بيان الله تعالى عن الكائنات ، فهو البيان البالغ الغاية والنهاية : لأنه سبحانه قد أحاط علمه بحقائق تلك الكائنات وصفاتها وعوارضها وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، وقال تعالى : (أنزله بعلمه) ، وقال تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يوقنون) ، وقال تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) ، وقال : (وسع ربي كل شيء علماً) .

وهكذا جاءت البراهين القرآنية صادرة عن علمه سبحانه ، صادعة بحجته ، قاطعة ببينته ، بحيث لا تعارض ولا تناقض .

قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) ، وقال : (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) .

إذاً ماذا يجب أن يكون موقفك مع كتاب الله تعالى أيها العاقل ؟

نعم يجب عليك أن تعرف أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى رب العالمين ، وهل هناك أحد أعلم من قائله والمتكلم به ؟ ، وهل ينال أحد علماً إلا من قائله سبحانه ؟ .

فإذا كان الله عز وجل هو عندك أعلم العلماء ، بل لا علم لعالم إلا من تعليمه سبحانه له ما شاء أن يعلمه(ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) ، وقد قال سبحانه : (وفوق كل ذي علم عليم) ، حتى ينتهي العلم إليه سبحانه ، فإنه إليه المنتهى ، وليس له انتهاء ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (من أحب العلم فليثور_ أي : فليقرأ _القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين) .

فإذا عرفت ذلك حقاً لم تؤثر على كلامه سبحانه علما ولا كتاباً سواه ، بل تقبل على كتاب الله تعالى بقلبك وعقلك وحواسك ، حباً لقائله ، وتعظيماً وإجلالاً للمتكلم به ، لأنه كلام رب العزة والجلال ، الكبير المتعال ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فأفاضت آيات كتابه حِكماً وحُكماً ، أنزله على عباده ليعرفهم به نفسه : بصفات كماله ، ونعوت جلاله وإفضاله ، ويذكرهم به نعمه وأيامه ، وينبههم من رقدة الغافلين ، ويحيي قلوبهم بحياة الإيمان ، وينوّر بصائرهم بنور الفرقان ، ويشفي صدورهم ، ويزيل جهلهم ، وينفي شكوكهم ، ويدحض شبهاتهم ، ويغسل به دنسهم ، ويوضح لهم سبل الهدى ، ويحذرهم من مهواة الغي والضلال والردى ، ويهديهم سبيل الرشاد ، وما فيه صلاح العباد والبلاد .

جاء لكافة العالم بالهدى ، وبينات من الهدى والفرقان ، الذي يميز الحق من البطلان .

فهذا كتاب الله تعالى العليم العلام ، ذي الجلال والإكرام ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا في أعماق البحار ، ولا في أعالي الأجواء ، فحق لهذا الكتاب العظيم : أن لا تشبع منه العلماء ، ولا

العقلاء الأذكياء ، ولا الحكماء والعرفاء ، ولا أولو الثقافة والحصافة .

فهو الكتاب العزيز الذي لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، ولا تحد فضائله ومناقبه ، ترى فيه الحجة والبرهان كأنها المشاهدة بالعيان ، على مدى العصور وتعاقب الأزمان ، مع الإيجاز والإعجاز ، فهو كتاب هدي مع البينات ، وكتاب دعوة تعانق الحجة ، وهو منهج مع الدليل ، والله تعال يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فيا أيها اللبيب العاقل ، أقبل بكليتك عليه ، وأكثر من تلاوته مع التدبر والإصغاء إليه ، فإن الله تعالى الذي أنزله ضمن للمقبلين عليه بعقولهم وقلوبهم أن يفهمهم كلامه ، وينفعهم به فقال سبحانه : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ، والذكرى تنفع المؤمنين لا محالة .

فاتق الله تعالى أيها المسلم ، وإياك أن تهجر كتاب الله تعالى وتواصل ما سواه ، وإياك أن تكترث بغير كتاب الله تعالى أو تهتم به ، أو تعظم في نفسك وقلبك وعقلك ما سواه من الكتب ، ولا تعظم كتاب الله تعالى ، أو تثق بعلوم كتب المخلوقات أكثر من ثقتك بعلوم كتاب الله سبحانه ، أو تولع في كتب العباد أكثر من ولعك بكتاب رب العباد ، ولقد حذر الله تعالى هذه الأمة مما تورطت فيه الأمم الكافرة السابقة فقال : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) _ أي : واستهزأوا بما جاءت به الرسل : (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) _ أي:دمر الله تعالى عليهم.

بل الواجب عليك شرعاً وعقلاً وذوقاً ووجداناً وفطرة : أن تؤثر كتاب الله تعالى على كل كتاب ، وخطابه الوارد فيه على كل خطاب ، ويعظم كلام

الله تعالى في قلبك وعقلك ونفسك فوق كل كلام سواه .

وإذا كنت تجل كلام العالم لعلمه فلا أعلم من الله تعالى ، بل له العلم المطلق كله .

وإن كنت تجل كلام الحكيم لحكمته فالقرآن الحكيم فوق كل كلام حكيم .

وإن كنت تجل كلام العظماء والكبراء فلا أعظم ولا أجل ولا أكبر من الله تعالى الذي له الكبرياء في السماوات والأرض .

وإن كنت تجل كلام الخبير لخبرته فالله تعالى هو العليم الخبير .

وإن كنت تعز كلام العزيز لعزته فلله العزة جميعاً وهو رب العزة .

وإن كنت تحترم كلام القدماء فالله تعالى هو القديم الذي لا أول له ولا شيء قبله ، وكلامه قديم لم يتقدمه كلام _ جّل وعلا .

فانتبه من غفلتك ، واستيقظ من رقدتك ولا تكن من الذين أولعوا بكتب أعداء الله تعالى ، ونبذوا وراءهم كتاب الله ، واتخذوه مهجورا، وجعلوا كتاب أعداء الله ديواناً منشورا، مقبلين على قراءته ودراسته .

واعلم أيها المسلم أن هذا الكتاب الإلهي له بيان نازل بالوحي من الرحمن ، على أكمل إنسان ، وسيد ولد عدنان ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد أحال سبحانه العباد إلى ذلك البيان المحمدي فقال : (ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وذلك بعدما بينه له سبحانه حيث قال : (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) ، فبين الله تعالى القرآن لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يبين ذلك للناس .

فلا بد في مفاهيم القرآن من الرجوع إلى هذا الميزان . وهو البيان

المحمدي المسمى بالحديث وبالسنة ، المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وسلم .

فما وافق هذا الميزان ولم يخلفه فهو حق عدل ، وما كان غير ذلك فهو باطل وظلم ، قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) _ أي : السنة ، وقد سماها سبحانه أيضاً الميزان فقال تعالى : (الله الذي أنزل الكتب بالحق والميزان) فهذا الميزان هو الحكمة وهو السنة النازلة من عند الله تعالى ، كما صرحت بذلك الآية .

فليس كتاب الله تعالى لعبة اللاعبين ، ولا متأولا للجاهلين ، بل هو منهاج حق ، ومنار صدق للجادين في علمهم و عملهم ، وبحر العلوم للعلماء الراسخين ، وهو قول فصل (هو الفصل) ، وليس فيه هزل ، جاء بفصل الخطاب وليس فيه ارتياب ، وهو البحر في علومه ومعارفه وحكمه وأسراره ، فطوبى للعارفين الغارقين ، وللعلماء الراسخين .

فإذا بحثت عن العقائد فلقد جاءك القرآن الكريم بأقومها .

وإن بحثت عن الشرائع فلقد جاءك بأحكمها .

وإن بحثت عن الأخلاق فلقد جاءك بأكملها .

وإن بحثت عن الآداب فلقد جاءك بأرفعها .

وإن بحثت عن القصص فلقد جاءك بأحسنها .

وإن بحثت عن العلوم فلقد جاءك بأوسعها .

وإن بحثت عن العوالم جاءك بالخبر عن أعلاها وأسفلها .

وإن بحثت عن معرفة نفسك جاءك بالبيان عن خصائصها وصفاتها ومقاماتها ومنازلها .

وإن بحثت عن أخبار الماضين جاءك القرآن بأصحها وأصدقها .

وإن بحثت عن الأمثال فقد جاءك بأمثلها : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

وإن بحثت عن تقلبات الإنسان في العوالم الآتية جاءك القرآن الكريم بالجواب الكافي ، والدليل الشافي من كل شك وشبهة .

وإن بحثت عن عالم المادة وجدت فيه بيان كل عنصر ومادة .

وإن بحثت عما وراء المادة وجدته يأتيك بالحقائق الثابتة ، ويسير بك على وضوح الجادة _ كما سيتضح لك في القسم الثاني الذي يلي هذا القسم الأول إن شاء الله تعالى .

منهج القرآن الكريم في دعوته وهديه للناس

قال الله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) الآية .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لعباده المنهج الذي جاء به القرآن الكريم ، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة أمور كبرى هي البغية والغاية ، وإليها النهاية باعتراف جميع أولي العقل والفطانة ، وإقرار ذوي الحكمة والدراية وتلك الأمور :

أولها _ أن القرآن الكريم جاء هدى للناس .

ثانيها _ أن القرآن الكريم جاء ببينات من الهدى .

ثالثها _ أن القرآن الكريم جاء بالفرقان .

وإليك بيان هذه الأمور مفصلة إن شاء الله تعالى :

الأمر الأول

هو أن القرآن الكريم جاء هدى للناس ، ففي هذا تنبيهات إلهية لتلك القضايا الهامة ، التي يجب على العقلاء أن يتنبهوا إليها ويعقلوها ، ليكونوا على إيمان جازم بها ، وعلى بينة من أمرهم :

أ_ ينبه الله تعالى العقلاء لشدة حاجتهم إلى هذا القرآن الكريم ، الذي جاء بهداهم ، وأن الناس بلا هدى يتيهون في الضلال ، وإن شأن الضال في طريقه أن يتخبط ويحار ، ويظل حائراً دون أن ينتهي إلى طمأنينة وقرار. فجاء هذا القرآن هادياً لأنه جاء بالنور من عند الله تعالى ، وإذا جاء النور اهتدى الناس لمعرفة الأمور بعدما كانوا في ظلمة الحيرة والضلال ، كما قال الله تعالى : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

فلم يخرجهم من الضلال المبين إلا هذا النور القرآني المبين ، فإن من سلك طريقاً مظلماً تعرض للمهالك والمتاهات والمهاوي ، وأما الماشي على نور فإنه يهتدي إلى حقائق الأمور وينتهي إلى غايته ، ويظفر ببغيته في أمان واطمئنان .

وإذا كان هذا الحال الماشي في طرق الأرض المحدودة مساحاتها ، والمحصورة مسافاتها ، فما ظنك أيها العاقل اللبيب في مسيرة الطريق الطويل ، المزدحم بالمهمات ، المتسلسل بالعقبات ، ألا وهو طريق الحياة الدنيا الذي تسير عليه مدى عمرك كله ،حتى تجتازه وينتهي بك إلى الآخرة ؟

اللهم : حسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب

الآخرة .

نعم إنك أيها العاقل أحوج إلى النور المحمدي الذي يهديك سبل السلام ، ويخرجك من الظلمات إلى النور ، وينتهي بك إلى مصالح الأمور ، فأنت أحوج إلى ذلك من حاجتك إلى النور المادي لتمشي على وجه الأرض مسافة محدودة .

وإلى هذا أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته لتعتبر وتتذكر ، وتشعر بشدة الحاجة إلى ما جاء به من الهدى والعلم حيث قال : ((تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء)) الحديث له طرق متعددة .

وروى مسلم عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قل : اللهم اهدني وسددني)) واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسداد سداد السهم .

وفي رواية : ((قل : اللهم إني أسألك الهدى والسداد)) ، الحديث .

فلقد جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور من عند الله تعالى قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا).

وقال : (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد) .

وهذا النور هو المذكور في قوله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلناه والله بما تعملون خبير) ، وقال تعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

ب_ تنبيه الله تعالى لعباده وتذكيرهم بما وعدهم به ، وما عهد به إليهم يوم أهبط أبويهم إلى عالم الأرض وهم _ أي : بنو آدم _ في صلبه وقال لهم سبحانه : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

فلما أهبطهم إلى عالم الأرض لم يتركهم سدى بل تعهدهم بهديه وإرشاده وتعليمه سبحانه ، وأن يبين لهم طرق الخير والبر والسعادة والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة .

وكان هذا عهداً به إليهم (ومن أوفى بعهده من الله) ؟ ، فلقد وفى سبحانه بعهده ، فله الحمد والمنّة ، فأرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب وفيها الهدى الإلهي ، وأمر الرسل صلوات الله تعالى عليهم أن يبلغوا عباد الله ويهديهم سبل السلام قال تعالى : (ولكل قوم هاد) ، وقال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، أي : يبين لهم طريق الخير من الشر ، وطريق السعادة من طريق الشقاوة كما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنه لم يكن نبي قبلي إلا دل أمته على ما يعلمه خيراً لهم ، وحذرهم مما يعلمه شراً لهم) ، الحديث .

وفي هذه الآية الكريمة _ أي قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى) الآية يرد على من زعم أنه مضى على الإنسان القديم طور الحيوان الوحشي ، وأنه مر عليه دور البهائم والهمج ، ويستدلون على ذلك بما عثروا عليه من صورة إنسان شعره إلى نصفه ، وأنه كان

يمشي عارياً إلى ما وراء ذلك من المزاعم الباطلة .

والحق أن البشرية منذ القدم تعهدها ربها تعالى بالتشريعات السماوية ، والإرشادات الإلهية إلى ما فيه صلاحهم ، ولذلك تجد أن الخطابات الإلهية توجهت إلى بني آدم عقب هبوطهم إلى الأرض .

فيقول سبحانه : (قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) .

(قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) .

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزغ عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) كما في سورة الأعراف .

فهذه إرشادات وتوجيهات إلهية عامة لجميع بني آدم ، ولذا جاء الخطابات بها بصيغة بني آدم ليعمهم جميعهم منذ أهبطهم إلى الأرض إلى آخرهم على وجه الأرض ، وجاءت هذه التوجيهات عقب إهباطهم حتى تعلم أن الله تعالى هو رب العالمين ، لم يترك عباده سدى بل تعهدهم بهديه منذ أهبطهم ، فإنه لم يخلقهم عبثاً ولا لعباً ، ولا للعبث واللعب ، بل خلقهم بالحق وللحق .

فما عثروا عليه من إنسان وحشي حيواني بهيمي ، شعره إلى نصفه ، وعورته بادية ، وأظفاره طويلة ، إن ثبت ما قالوه فذلك الإنسان هو إنسان لم يكن متمسكاً بشرائع الله تعالى السماوية ،ولم يتصف ويعمل بالتوجيهات

والإرشادات الإلهية التي جاءت بالفطر الدينية المجمع عليها لدى جميع الشرائع منذ هبوط آدم عليه السلام كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم : (خمس من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط) .

وهكذا جاءت رسل الله تعالى من لدن آدم أبي البشر بالهدى من الله تعالى لما فيه صلاح العباد والبلاد ، حتى ختم الله تعالى النبوات والرسالات بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فجاء بالرسالة العامة لجميع طبقات الإنس ، وجميع طبقات الجن ، وإلى جميع الأمم : العرب والعجم إلى يوم الدين ، وقد جمعت رسالته جميع ما فيه صلاح العالم ومصالحهم ، وسعادة البشرية في الدنيا والآخرة على مختلف أجيالهم وأطوارهم .

فهديه صلى الله عليه وسلم أكمل أنواع الهدي وأسعده ، وأقومه وأرشده ، كما سيتضح لك قريباً إن شاء الله تعالى بأدلته .

فقوله سبحانه : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) فيه إعلان صدق وعد الله تعالى ، ووفاء عهده الذي عهد به في قوله تعالى : (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ج_ إن في قوله تعالى : (هدى للناس) إعلاماً بهدي القرآن العام لجميع طبقات الناس ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وعلى اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، وعلى اختلاف أجيالهم وقرونهم .

فإن في هذا القرآن المجيد أكمل الهدي وخير الهدى لأول هذه الأمة

وآخرها ، وأبيضها وأسودها ، وعربها وعجمها ، يهديهم في كل زمان وفي كل مكان إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ، وإلى ما فيه سعادة الفرد والمجتمع وإلى سعادة البيئات والجماعات ، والأسر والعائلات ، وهذا هو الهدي القرآني الذي أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : الرسول العام لجميع الأنام ، فلا أهدى منه ولا أجمل ، ولا أحسن منه ولا أكمل ، بل هو الأهدى والأبهى ، والأجمل والأكمل .

قال الله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) .

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته معلناً ومبيناً : (ألا وإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ...) إلى تمام الحديث .

فكل هدي جاء بما ينفع الناس ويسعدهم فإن هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعظم نفعا وأدفع ضيراً ، وأجمع خيراً وأكبر براً .

أما هدي الرسل قبله صلوات الله تعالى عليه وعليهم فهو موجه إلى أقوام خاصة في أزمنة خاصة :

قال تعالى في شأن التوراة : (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل) الآية .

وقال تعالى في شأن القرآن الكريم : (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

فشتان بين هدي القرآن وهدي التوراة وهدي بقية الكتب الإلهية .

وذلك لأن رسالات الرسل قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت

خاصة بأقوامهم :

قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) الآية .

وقال تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً) الآية .

وقال تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) الآية .

وقال تعالى : (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) صلى الله عليه وسلم .

وهكذا جميع الرسل ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : (قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) الآية .

وقال : (قل : أي شيء أكبر شهادة قل : الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) الآية .

ومن ثم كان يقول صلى الله عليه وسلم : (ليبلغن هذا الدين ما بلغه الليل والنهار) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (وكان كل رسول يبعث قومه خاصة وبعثت إلى الأحمر والأسود) الحديث .

فحق لمن كانت رسالته عامة أن يكون هديه أعظم ، وبرهانه أقوم ، لأنه جاء يوجه العالم كله ، ويواجه العالم كله ، فلا بد أن يكون هديه خيراً وأبقى ، وحجته أجلى وأقوى .

د_ قوله تعالى : (هدى للنا س) لا يتعارض مع قوله تعالى : (هدى للمتقين) .

فإن قوله سبحانه : (هدى للناس) معناه : صالح لهداية جميع الناس إلى

الخير والسعادة ، وفي هديه الكفاية ، وإليه منتهى الغاية .

وأما قوله تعالى : (هدى للمتقين) ففيه بيان المهتدين بهديه المنتفعين ببيانه ، ويوضح لك هذا :

قولك : الماء فيه ري للناس _ أي صالح لأن يرويهم .

وتقول : الماء ري للشاربين _ أي الذين استقوه وشربوه فعلاً .

وقولك : الطعام فيه غذاء للناس _ أي هو صالح لأنه يغذي جميع الناس .

وتقول : غذاء للآكلين _ أي : الذين تناولوه فعلاً وطعموا منه فإنهم تغذوا به بالفعل والواقع .

فالمتقون هم الذين اهتدوا بهدي القرآن الكريم ، وانتفعوا به حقاً لأنهم عملوا بما أرشدهم إليه ودلهم عليه فصاروا بذلك متقين فائزين بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه .

وهذا دليل على رجحان عقولهم ، فإن المتقي هو الذي يتوقى المكاره والمحاذير والمخاوف ، وينظر في عواقب الأمور ويتعقل فيها خوف الوقوع في المهالك ، هذا هو الأصل في معنى المتقي لغة .

وهكذا المتقي إيماناً وشرعاً فإنه هو العاقل : نظر في الأوامر الإلهية وعقلها ، فعلم أن فيها الخير ورضا الله تعالى وحبه وقربه ، وصلاح الدنيا والآخرة ، فالتزم تلك الأوامر ، ونظر في المناهي الشرعية فعلم ضررها وفسادها ، ونتائجها السيئة فتباعد عنها ، متوقياً ما يترتب عليها من غضب الله تعالى وعذابه وعقابه وعتابه ، وفساد الدنيا والآخرة .

ولذا كان من شأن هؤلاء العقلاء المتقين ، أنهم يؤمنون بالغيب ولو لم يروه عياناً ، لأنه قد ثبت عندهم صدق المخبر الذي جاء به ثبوتاً قاطعاً ، فهم

يؤمنون به ويعملون بمقتضاه .

أوليس من العقل والحكمة أن يقبل خبر الصادق الذي ثبت صدقه عندك إذا أخبرك عن عدو يريد أن يغير عليك ، أو أخبرك عن مكروه ينالك من حاسد ، أو أخبرك عن ماكر بك ، وتأخذ حذرك وتتوقى شر ذلك بأسباب الوقايات ، ولا يكون موقفك في ذلك موقف الجاهل الغافل الذي يقول : هذا ليس بصحيح ، أوليس بواقع ، وأنا لا أصدق حتى أرى بعيني _ فإذا فعلت ذلك صبّحك العدو أو أمساك ، وحينئذ تندم ولات ساعة مندم .

ومن هذا جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي : _ لبطون قريش _ حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟) .

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

وفي رواية لهما أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : (أرأيتكم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونني ؟) .

قالوا : نعم .

قال : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

وفي رواية للبخاري قال لهم صلى الله عليه وسلم : (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟) .

قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

فقوله تعالى : (هدى للمتقين) هو نظير قوله : (إنما أنت منذر من يخشاها) مع أنه صلى الله عليه وسلم جاء نذيراً للعالمين قال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

ه_ وقوله تعالى : (هدى للناس) فيه يطلق الله تعالى الهدى ولم يبين إلى ما يهدي إليه هذا القرآن الكريم ، وهذا من باب حذف المعمول للمعموم ، ليذهب فهم الفهيم ، ولب اللبيب ، إلى أن هذا القرآن الكريم يهدي إلى جميع مجالات الخير والبر ، والإحسان والفضل ، وما فيه صلاح الدنيا والآخرة _ ولا شك أن هدي القرآن هو كذلك وفوق ذلك ، بدليل أن الله تعالى ذكر في آية أخرى من سورة الإسراء ما يهدي إليه هذا القرآن الكريم فقال سبحانه : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) .

هدي القرآن الكريم للتي هي أقوم

قال سبحانه : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) .

فلقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي العالم لأقوم السبل النيّرة ، وأرشد الطرق الخيرّة ، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء الذي علمه لسيدنا علي رضي الله عنه حيث قال له : (قل : رب اغفر وارحم ، واهدني السبيل الأقوم) .

فهذا الحديث الشريف شاهد صدق ، يوضح لنا المراد بالتي هي أقوم من الآية الكريمة ، فإن السنة بيان لكتاب الله العزيز ، والمعنى أن هذا القرآن

يهدي لأقوم سبل الخير والسعادة ، والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، كما سيتضح ذلك في قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) حصر وتخصيص لهذا القرآن الكريم بهدايته للتي هي أقوم ، وأن أي كتاب سواه لا يبلغ هذه المنزلة في هداه للتي هي أقوم ، فهو الكتاب المتفوق بهديه على جميع الكتب المتضمنة للهدي .

وفي هذا أنواع من التحديات للعقلاء المبتغين للهدى ، وللحكماء وللعلماء المستبصرين بأنوار الهدى ، فإنه يتحداهم أن يأتوا بما هو أهدى منه لمصالح العباد ، وبما هو أدل وأشمل لكل خير وسعادة ورشاد ، كلا بل هو أهدى ولا أهدى منه ، (يهدي للتي هي أقوم) ولا أقوم منه ، ولا أقسط ولا أصلح ولا أحكم منه (أليس الله بأحكم الحاكمين) ، (ومن أصدق من الله قيلا) ، (قل : فلله الحجة البالغة) ، (حكمة بالغة فما تغن النذر)،(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) .

ومعنى أن القرآن يهدي للتي هي أقوم : هو أنه يهدي لأقوم السبل والطرق بالأدلة الساطعة ، في جميع ميادين السعادة والصلاح والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

فهو يهدي لأقوم طريق في العقيدة والإيمان ، ويهدي لأقوم طريق في الشريعة والأحكام ، ويهدي لأقوم طريق في الآداب ومكارم الأخلاق ، ويهدي لأقوم سبيل في حسن المعاملات والمبادلات المالية ، ويهدي لأقوم سبيل في تنظيم الأحوال الشخصية وحسن المعاشرات الزوجية ، وحفظ حقوق المرأة وإصلاح النسل والذرية .

ويهدي لأقوم طريق في ضبط نظام الأسرة ورعاية حقوق الآباء والأمهات

والأبناء ، ويهدي لأقوم سبيل في حقوق القرابة الرحمية .

ويهدي لأقوم سبيل يهتدي فيه العاقل لمعرفة ما له وما عليه ، ولمعرفة بدايته ونهايته ، ولمعرفة مم خلق،ولم خلق،وإلى م يستقر أمر المخلوقات .

ويهدي لأقوم طرق التفكير الصحيح في هذه العوالم ، وفي عظيم قدرة الله تعالى رب العالمين وفي سعة علمه وسائر كمالاته وصفاته ، حسب ما يمكن للعبد أن يصل إلى معرفته قال تعالى : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) .

وفصل الخطاب في هذا الباب هو : أن القرآن لأقوم طرق الخير والبر ، وإصلاح النفوس والبيئات ، والأفراد والجماعات والمجتمعات ، وإصلاح عمارة الأرض التي استعمر الله تعالى بني آدم فيها ، وإصلاح أمور الدنيا والآخرة ، فما من خير وفلاح يعود على بني الإنسان إلا ومن القرآن هدايته لسبيله الموصل إليه ، وما من شر يعود على بني الإنسان إلا وفي القرآن الكريم تحذير منه وإبعاد عنه .

فهو قرآن عجب ، إليه منتهى الطلب والأدب ، ما فرَّط الله تعالى فيه من شيء يهدي العباد إلى سبل الرشاد ، قال تعالى مخبراً عن الجن لما سمعوه : (قل : أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) .

الأمر الثاني

هو أن القرآن الكريم جاء ببينات من الهدى ، فهو يهدي لطرق الحق ، ويأتي بالبينات على أن هذا هو الحق ، وهذا مطرد في جميع ما هدى إليه القرآن الكريم من العقائد الإيمانية والأحكام الشرعية ، والكمالات الخلقية ، والآداب العامة والخاصة .

الأمر الثالث

هو أن القرآن الكريم جاء بالفرقان ، أي : جاء بما يفرق بين الحق الذي هدى إليه ، وبين الباطل الذي خالفه ، فهو يهدي للتي هي أقوم ، ويأتي بالبينات القاطعة ، على حقية ذلك ، ويبين الفرق بين حقية الحق الذي جاء به ، وبطلان الباطل الذي خالفه ، وما يترتب على ذلك من آثار ونتائج .

ولا شك أن هذا المنهج القرآني في هديه المشتمل على تلك الأمور الثلاثة : هو أقوى وأقوم ، وأسد وأحكم ، وأقطع في إقامة الحجة،وأبين في وضوح المحجة من كل منهج سواه ، ومن كل أسلوب مما عداه .

وسأذكر إن شاء الله تعالى بعض الأمثلة من الآيات الكريمة ليتضح فيها هذا المنهج القرآني المجيد ، وتتجلى فيها تلك المهام الثلاثة التي سبق ذكرها آنفاً .

وبتلك الآيات التي أذكرها تتراءى واضحة معالم الطرق في حجج القرآن الكريم .

من تلك الأمثلة يعبر القارئ إلى بقية حجج القرآن في جميع المواضيع والمبادئ التي هدى إليها القرآن الكريم ، لأن استقصاء جميع ما ورد من القرآن الكريم من البينات ، واستيفاء جميع حججه وبراهينه _ لهو أمر معجز لا يستطيعه العقلاء ، ولا العلماء ، ولا الحكماء ، فإن بحر القرآن

طام ، وهديه عام ، وهو الذي لا تشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا : (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به) .

شواهد على ذلك المنهج القرآني ومنها المنطلق

هدي القرآن الكريم إلى الإيمان بالله تعالى :

لقد جاء القرآن الكريم يهدي إلى الإيمان بالله تعالى بالبينات والفرقان ، وقد دلت الآيات القرآنية على أن هناك أركاناً خمسة ، وأصولاً خمسة ، لا بد منها في الإيمان بالله تعالى .

الأول : الإيمان بأن الله تعالى هو حق _ أي : واجب الوجود .

الثاني : الإيمان بأنه سبحانه هو واحد _ أي : لا شريك له .

الثالث : الإيمان بأنه سبحانه متصف بالكمالات وله سبحانه الأسماء الحسنى على وصف لا انتهاء له .

الرابع : الإيمان بأنه سبحانه ليس كمثله شيء _ أي : لا مشابهة بينه وبين المخلوقات .

الخامس : الإيمان بأن جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالى بإرادته وقدرته واختياره ومشيئته .

وقد جاءت الآيات القرآنية في تفصيل الكلام على تلك الأصول والأركان الخمسة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أذكر هنا طائفة منها :

الأصل الأول: أن الله تعالى هو حق واجب الوجود .

اعلم أن الإيمان بأن الله تعالى هو حق _ أي : واجب الوجود _ هو أول واجب إيماني ، فقد قال سبحانه : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى

وأنه على كل شيء قدير)،وقال تعالى(يومئذ يوفهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) ، وقال تعالى :(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

والمعنى : أن رب السماء والأرض وخالقها هو حق واجب الوجود بدليل هذا الموجود المشهود وهو السماء والأرض ، فهو حق لا شك فيه ، مثل ما أنكم تنطقون ولا تشكون في ذلك .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((أنت الحق ، ووعدك حق ، والجنة حق)) . . . الحديث كما في الصحيحين .

فالله تعالى هو حق _ أي : واجب الوجود الذاتي _ وأما الجنة والنار وما وراء ذلك فهي حق بجعل الله تعالى وخلقه .

ومعنى الحق في اللغة هو : ما وجب إثباته والاعتراف به ، ولا يمكن إنكاره والشك فيه لقوة ثبوته وقطعية حجيته ، ويقابله الباطل ، فهناك حق الوجود ويقابله الباطل وهو العدم ، وهناك الحق الشرعي وهو ما أحله الله تعالى شرعاً وأثبته ويقابله الباطل وهو الحرام ، وهناك الحق الخبري وهو الصدق المطابق للواقع ويقابله الباطل وهو الكذب المخالف للواقع .

فالله تعالى هدى العباد في تلك الآيات من القرآن الكريم إلى الإيمان بأن الله تعالى هو حق أي واجب الوجود ، بحيث يجب على العاقل الاعتراف به قطعاً ، والإيمان بوجوده من غير ارتياب ، إذ ليس هناك ثابت تظاهرت الأدلة والبراهين القاطعة على إثبات وجوده كما تظاهرت على إثبات وجود البارئ جل وعلا .

ومن ثم حق له أن يتسمى (بالحق المبين) أي : الذي لا يخفى إثبات

وجوده على أي عاقل ، بل هو الظاهر ولا أظهر وجوداً منه ، بحيث لا يشك فيه كما أنه لا شك في وجود الكائنات المشهودة بالعيان ، قال تعالى : (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) .

فكما أنه لا شك في وجود السماوات والأرض المشهودة بالعيان ، فإنه من باب أولى وأحق لا شك في وجود من أوجد السماوات والأرض ، وهو الله تعالى كما سيتضح لك الدليل إن شاء الله تعالى .

فهو سبحانه حق _ أي : وجوده واجب ، قديم لا أول له ، باقٍ لا آخر له ، ويقابله الباطل وهو ما كان وجوده ليس بقديم ولا باق ، وهو الممكن الذي لا وجود له من ذاته بل إيجاد الله تعالى له ، ولذا جاء في الحديث المتفق عليه : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد) :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

أي كل ما سوى الله تعالى هو باطل بالنسبة إلى وجود واجب الوجود القديم الباقي ، لأن كل ما سوى الله تعالى هو مخلوق بعد عدم وهو ممكن الوجود _أي : ليس وجوده واجباً ولا ذاتياً له ، بل صار موجوداً بإيجاد غيره وهو الله تعالى واجب الوجود .

فهذه الممكنات بعد ما أوجدها الله تعالى وأعطاها الوجود الإمكاني المحدود هي حق بالنسبة للمعدومات التي لم توجد بعد ، وحقية وجودها ليست من ذاتها بل بتحقيق الوجود لها بقدرة واجب الوجود الذاتي وهو الله تعالى القديم الباقي .

هذا هدى ، أي فالآيات القرآنية جاءت تهدي للإيمان بأن الله تعالى هو الحق أي : واجب الوجود الذاتي قطعاً .

البينات من الهدى :

وأما البينات من الهدى إلى الإيمان بأن الله تعالى هو الحق فقد جاء ذلك في آيات كثيرة متعددة في مناسبات مختلفة : فمن ذلك :

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) .

ومن ذلك قوله تعالى : (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) فمشاهدة السماوات والأرض دليل قاطع على حقية موجدهما .

ومن ذلك قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ... الآيات .

ومن ذلك قوله تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

فالله تعالى حق ، وفي قوله تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فيه تنبيه لأقرب شيء إلى الإنسان والتبصر فيه وهو نفسه .

ومن البينات قوله سبحانه : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) .

والمعنى كيف ينكرون حقية وجود الله تعالى ، وكيف يصح إنكار وجود الخالق

مع أنهم شيء موجود حساً وعقلاً ، فكيف يتصور في العقل أو يمكن في الواقع أن يكون وجودهم صادراً لا عن شيء متصف بالوجود ، فإن العدم

هو لا شيء ، بل هو عدم ، ولا يمكن أن ينشأ عنه وجود ، إذاً لا بد لهم من موجد موجود أوجدهم .

فإن ادعوا أن الموجد لهم هو أنفسهم _ أي أنهم هم الخالقون لأنفسهم فذلك باطل حساً وباطل عقلاً ، لأنه يلزم منه أنهم قبل إيجادهم لأنفسهم كانت أنفسهم موجودة ، لأن خالق الشيء هو سابق الوجود على الشيء ، والصانع مقدم الوجود على المصنوع ، والمؤثر متقدم الوجود على الأثر ، وهذا كله معلوم بداهة .

وإن ادعوا أن آباءهم أوجدوهم فيقال : إن آباءهم هم مثلهم ، فلا بد وأن الذي أوجدهم هو ليس من أنفسهم ، ولا من آبائهم ، ولا من المخلوقات كلها ، لأنهم كلهم كانوا عدماً ، والعدم لا يعطي الوجود لأنه عدم .

إذاً لا بد وأن هناك خالقاً خلقهم ، وأن هذا الخالق الذي خلقهم وأوجدهم هو ليس من جنس المخلوقات التي اكتسبت الوجود من غيرها بعد عدم ، بل ذلك الخالق هو واجب الوجود : القديم الذي لا أول له ، والباقي الذي لا آخر له ولا انتهاء له ، وهذا هو الله رب العالمين ، الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء ، والقدير على كل شيء ، والمحيط بكل شيء ، وليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

ومما يوضح ذلك ويثبته قطعاً : أن هذه الممكنات الموجودة المعبر عنها بالعوالم هي بجميع أنواعها كانت مسبوقة بالعدم ، ثم وجدت فلا بد لهذا الممكن الذي وجد بعد عدم لا بد له من موجد يرجح وجوده على عدمه ، فيخرجه من العدم الذي كان فيه ، إلى عالم الوجود الذي صار فيه ، ولا يمكن أن يوجد بنفسه بلا موجد له ، لأنه يلزم من ذلك ترجح وجوده على

عدمه الذي كان فيه بلا مرجح ، والترجح بلا مرجح هو مستحيل لدى جميع الموازين العقلية ، كما أنه باطل مستحيل الوقوع لدى جميع الموازين الحسية .

إذا لا يمكن ترجح إحدى الكفتين المحسوستين بلا مرجح ، فإذا كان ثمة كفتا ميزان محسوس توزن به المواد وهما متساويتان تماماً فإنهما تكونان متعادلتين ، ولا يمكن أن ترجح إحداهما على الأخرى إلا بمرجح من المثقلات ، أو من ضغطة هواء ونحو ذلك ، وهكذا أمر الوجود والعدم بالنسبة للممكنات فإنهما على حد سواء لا يمكن أن يترجح وجود الممكن على عدمه إلا بمرجح ، فالذي رجح وجود الممكنات على عدمها بإرادته وخلقها وأوجدها بقدرته : هذا هو الله تعالى الخلاق العليم الذي قال : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

وكما أن الترجح بلا مرجح هو باطل عقلاً وحساً ، فإن التحرك بلا محرك هو باطل ، وإن التطور بلا مطور هو باطل .

فالعالم قبل وجوده كان ساكناً في ظلمة العدم ، فتحركه من سكونه إلى نور الوجود لا بد له من محرك ، وانتقاله وتطوره من العدم إلى عالم الوجود لا بد له من ناقل ومطور ، فهل رأيت ساكناً من حجر أو مدر أو شجر أو نحو ذلك تحرك بدون محرك مشهود أو مغيب كثيف أو لطيف ؟ ..

فحين يثور الغبار وتتحرك الأشجار وتتموج البحار يعلم العاقل يقيناً أن هناك محركاً حركه هو الهواء ، وإن كان هو لا يرى الهواء بعين بصره للطافة الهواء وضعف بصره عن إدراك لطافته ، ولكن ثبت وجود الهواء عنده بعقله بمشاهدة آثاره وهي : إثارة الغبار ، وتحريك الأشجار ،

وتمويج البحار ، وتحسسه بآثار برودته وحرارته ، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه ..

الأصل الثاني : هدي القرآن الكريم إلى توحيد الله تعالى :

وهو الإيمان بأن الله تعالى هو واحد بمعنى أنه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وإلى هذا الأصل الإيماني هدى الله تعالى عباده يقوله : (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون) ، وقال تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) .

وفي هذه الآيات وأمثالها هدي للإيمان بوحدانية الله تعالى ، ثم أتبع الله تعالى ذلك بذكر البينات من الهدى فقال سبحانه بعد قوله : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) قال في بيان الأدلة على ذلك وهي البينات من الهدى :

(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسّخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر سبحانه بينات من الهدى ستة مشهودة بالعيان ، ثابتة بالبرهان ، يعقلها كل عاقل ، ويبصرها كل من أبصر .

فالأولى : هي خلق السماوات والأرض وهما العالمان المحيطان بهذا الإنسان ، سماء تظله وأرض تقله ، وما أودع فهما من الآيات والمبدعات .

فلينظر العاقل إلى السماء فوقه كيف بنيت ورفعت ، وإلى الأرض كيف

سطحت ، ولينظر فيما أودع الله تعالى في السماوات والأرض من الآيات ، قال تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض) فحث عباده وأمرهم بالنظر في آيات السماوات والأرض ، قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) .

والنظر في آيات السماوات والأرض هو التفكر والتدبر ، ليقف العاقل فيها على ما هي عليه من إثباتات ودلالات ومستلزمات ،من أن لها صانعاً عليماً حكيماً ، حياً قديراً ، لأنها مصنوعة في أحسن الصنع ، والصنع يقتضي صانعاً ، إذ لا يتصور مصنوع بلا صانع ، ولا يتصور الصنع من الصانع إلا إذا كان عالماً بالمصنوع قبل أن يصنعه ، قادراً عليه حكيماً ، فلا بد في هذا الصانع أن يكون عليماً حكيماً قديراً _ وهذه الصفات تستلزم أن يكون من باب أولى أن يكون حياً يريد ويختار وله الاقتدار .

فلينظر العاقل إلى كواكب السماء وانتظام سيرها في أفلاكها مع عظم أجرامها وأحجامها ، تقطع المسافات الشاسعة في أقصى سرعة دون أن يختل نظام سيرها ، أو يختل نظام جرمها ، أو تخرج عن محيط فلكها _ أي طريقها التي تسبح فيه _ مع كثرة الكواكب ، فلا يحصل بينها اضطراب ولا احتكاك على مدى الدهور والعصور إلى يوم القيامة .

إذاً من الذي رفع السماء وسيرّ كواكبها ونظمّ لها سيرها في أفلاكها وأعطاها قوة السير والسرعة ، وأودع فيها معادنها المعينة لها ، وجوّها المناسب لها .

إذاً لا بد للمتحرك من محرك ، ولا بد للمتخصص من مخصص .

فلم اختص هذا الكوكب بالبرودة وذاك بالحرارة ، وذاك بالرطوبة وذاك

باليبوسة ، وذاك في بعده عن الأرض كذا وكذا من الأبعاد والآخر أبعد منه ، وهذا الكوكب موقعه في جهة كذا والآخر في جهة كذا ، وهذا يشرق في وقت كذا ويغرب في وقت كذا،والآخر يخالفه في الشروق والغروب .

إذاً لو كان طبيعة _ أي : بطبيعة حالها _ لتساوى الكل في ذلك ، ولم يحصل شيء من الاختلاف في ذلك فإن مقتضى الطبع والطبيعة واحد .

إذاً لا بد من إله عليم حكيم قدير ، خصص كل كوكب بخاصة ، وأوقع كل كوكب في أبعاد معينة بالنسبة لعالم الأرض ، وبالنسبة لبقية الكواكب التي في مستواه ، أو فوقه ، أو دونه ، وذلك تقدير العزيز العليم الذي قال : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم) .

فمهما علم الإنسان من الحكمة في إيقاع الكواكب مواقعها المقدرة والمعينة لها ، فإنه ما علم إلا الشيء اليسير ، فإنه علم شيئاً وغابت عنه أشياء ، ولذا قال سبحانه : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أي : فهناك أمور جسام وحكم عظام لم تعلموها .

وسيأتي الكلام على عالم النجوم في موضعه إن شاء الله تعالى مفصلاً .

الثانية : اختلاف الليل والنهار ، فإن الأمور حين تختلف فإنها دليل على وجود من يخالف بينها ويتصرف بها ، فإن التبدل والتغير دليل على وجود من يبدل ويغير ، وفي اختلاف الليل والنهار تقسيم للزمن حسب مصالح البشر في حياتهم ومعاشهم ، وتنظيم لمجتمعهم وأوقات عملهم وراحتهم .

وهذا الاختلاف يشمل تخالفهما إثر بعضهما ، وتعاقبهما الحثيث ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) .

ويشمل اختلافهما في الطول والقصر صيفاً وشتاءً ، وفي ذلك حكم عظام ، ومصالح جسام ، تعود على العباد بالمنافع الصحية البدنية ، والفوائد المعاشية إلى غير ذلك .

ويشمل اختلافهما على سطح هذا العالم الأرضي بأن يكون هناك نهار وهناك ليل ، وفي هذا دلل على قدرة الخالق البارئ المدبر الحكيم سبحانه وتعالى ، الذي أدار الكواكب بانتظام حول عالم الشمس _ بانتظام وتقدير وإحكام دون خلل ولا فساد (ذلك تقدير العزيز العليم) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لهرقل حين أرسل إليه يسأله : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار) ؟ .

يعني أن من المعلوم بداهة أن النهار إذا كان في جانب من الأرض فالليل في الجانب الآخر ، وهكذا العكس ، فهما أمران متتابعان يختلفان على سطح الأرض .

الثالثة : (والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) .

وفي هذا آيات مشهودة دالة على قدرة وجود الله تعالى وحكمته ، وذلك أن هذه الفلك التي تجري في البحر كالأعلام ، أي : كالجبال في ضخامتها وثقلها بالأمتعة والمشحونات الثقيلة الكثيفة ، وإذ بها يقلها الماء اللطيف ويحركها ، ويسيرها الهواء أو البخار اللطيف _ فكيف هذا الماء اللطيف يحمل هذا الثقيل الكثيف ، وهذا الهواء أو البخار اللطيف يسيَّر هذا الكثيف ويقطع به المسافات الشاسعة ذات الليالي والأيام

الواسعة .

نعم إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون تشهدهم قدرة الله تعالى وحكمته الذي أمسك بقدرته هذا الماء ، وشد بقوته هذا الهواء ، فصار اللطيف قوياً يحمل الكثيف ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن _ أي : يهلكهن _ بما كسبوا ، ويعف عن كثير) .

وفي هذا مشهد ظاهر يدلك أن اللطائف التي تحمل وتحرك الكثائف ، مع أن تلك اللطائف لا تمس ولا تمسك ، بل ولا ترى كالهواء ، فإن العين الباصرة لا ترى عين الهواء وإنما ترى ما يحمله الهواء من غبار وهباء .

وخذ مثالاً على ذلك الروح مع الجسم فإن الجسم ثقيل كثيف ، تحركه وتحمله الروح اللطيفة ... إلخ

الرابعة:(وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) .

وفي هذا تنبيه للعقلاء وتبصير لهم بالحق ، وذلك بأن يتفكروا في هاتين الآيتين المشهودتين :

أولاهما : هذا الماء النازل من السماء كيف كوّنه وقدّره الله تعالى وأنزله بعد أن كان في جو السماء بخاراً ، بل قبل أن يكون بخاراً لم يك له أثر وجود مشهود ، فكيف أنشأ الله تعالى تلك الأبخرة ثم ساقها إلى بعضها ، ثم ألفّ بينها ، ثم جعلها ركاماً فوق بعضها وكثفها ثم أنزل ذلك الماء من خلالها .

وإلى هذه الأطوار والتحولات التي أجراها الله تعالى بقدرته أرشدنا الله تعالى بقوله : (ألم ترى أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً

فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار).

وقال تعالى:(هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال) . فهو سبحانه الذي ينشئ السحاب الثقال بالمياه الكثيرة ، والأمطار الغزيرة ، ويحملها على متن الرياح التي يقلبها كيف يشاء ، ويسوقها حيث يشاء ، وهذا أمر مشهود لدى العيان وكم في ذلك آيات لقوم يعقلون . قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

الثانية : الآثار الناشئة عن هذا الماء النازل من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج بها أزواجاً من نبات شتى ، قال تعالى : (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) _ أي : العقلاء الذين تنهاهم عقولهم عن كل رديئة ، وتحملهم على الفضيلة .

وأخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) .

وقال تعالى : (وفي الأرض قطع متجاورات وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

فالماء النازل من السماء واحد ، ولكن آثاره مختلفة : نباتاً وأشكالاً وألواناً

وطعوماً ، وفصولاً زمنية ، إذا لا بد من قدرة قدير ، وخبرة خبير ، وعلم من هو بكل شيء عليم ، وحكمة العزيز الحكيم ، ألا وهو الله تعالى رب العالمين الذي أشهد عباده آثار صنعه وآثار صفاته _ قال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) .

فلو كان الأمر طبيعة لما اختلفت آثارها ، ولما تنوعت نتائجها ، وإلى هذا نبهت الآية الكريمة حيث يقول سبحانه : (يسقى بماء واحد) أي : فالمادة التي تستمد منها تلك النباتات والأشجار واحدة ، فكيف تنوعت واختلفت ، فجاء الجواب بقوله تعالى : (ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فالذي ينوعها ويلونها ويكونها ويكيفها هو الله تعالى .

ثم قال تعالى : (وما بث فيها من كل دابة) عطف على ما سبق .

والمراد من كل دابة ، كل نوع من أنواع الدواب ، ومعنى بثها تكثيرها بالتوالد والتولد _ ولا شك أن في خلق تلك الدواب المتنوعة وإعطائها صورها المناسبة لها ، وهدايتها لنظام معاشها وتوالدها وغذائها ، وهدايتها لما ينفعها مما يضرها ، وربط نظام تعايشها مع بعضها _ في ذلك آيات لقوم يعقلون .

كما نبه الله تعالى العقلاء إلى ذلك بقوله : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أي : في تعايشها ونظامها وانتظامها ، سواء في ذلك النمل والنحل فما فوق ذلك ، قال تعالى : (قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فما من حجر نمل إلا وله قيادة ونظام وإمارة ، وما من كوارة نحل إلا ولها

نظام وقيادة تقودها ، وهكذا كما قال تعالى : (أمم أمثالكم) .

وفي الحديث الصحيح : (قرصت نحلة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النحل فأحرقت ، فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نحلة ، أحرقت أمة من الأمم تسبّح .

قال تعالى في تلقينه الحجة لموسى على فرعون : (قال : ربنا الذي أعطا كل شيء خلقة ثم هدى) فهدى سبحانه بالهدي العام جميع الدواب والطيور وأنواع الحيوان إلى نظام غذائها ومعاشها وتوالدها ، وتربية نسلها ، وإلى معرفة ما ينفعها وما يضرها ، كما أن في بث تلك الدواب وتسخير بعضها لبني آدم ينتفع بلحومها أو حليبها ، أو الحمل عليها وركوبها ، أو في الاصطياد منها ، أو الانتفاع بحراستها كالكلاب ونحوها ، أو في الانتفاع بأشعارها وأوبارها ونحوه ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

الخامسة : قال تعالى : (وتصريف الرياح) أي : وفي تقليب الله تعالى للرياح وتنويعه لها في اتجاهاتها جنوبا وشمالاً ، وقبولا ودبوراً ، وفي تنويعها حارة وباردة ، وعاصفة ورخاء ولينة ، ولواقح وعقيما ، وإرسالها بالرحمة أو بالعذاب ، إلى غير ذلك إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

السادسة : قال تعالى : (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) .

والسحاب اسم جنس واحدة سحابة ، وسمي بالسحاب لانسحابه في الأجواء والفضاء ، أو لجر الرياح له وانسحابه معها ، ففي إنشاء الله تعالى له كما قال تعالى : (وينشئ السحاب الثقال) وضمه بعضها إلى بعض ، وتكاثفها فوق بعضها ، وتحميلها الأمطار الغزيرة وإنزالها منها ، قال تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً) .

في ذلك كله آيات عظيمة لقوم يعقلون ، فيعلمون أن لها رباً خالقاً حكيماً عليماً بكل شيء قديراً على كل شيء،أتقن صنع كل شيء سبحانه وتعالى .

وهكذا يبين سبحانه وتعالى آياته للناس وفيها بينات من الهدى إلى الإيمان ، بوجوب وجوده ووحدانيته سبحانه فيقول : (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون) أي : إلى أين تذهب عقولكم وتصرف ، ففكروا فيما تشاهدونه من هذا التخليق والتطوير والتدبير الكوني الذي تعاينونه ، واعقلوا ما فيه من البينات والدلائل على وجود بارئه وخالقه ومدبره .

فإن سألتم عن الله تعالى وقلتم من هو الله ، فهذا جوابكم : (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون) ، (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم) .

ويقول سبحانه : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) _ أي : ومن الآيات الدالة على وجوب وجوده ووحدانيته التي فيها البينات والحجج القاطعات أن الله تعالى خلقكم من تراب ثم طوركم وخلقكم خلقاً من بعد خلق ، فإذا أنتم بشر تنتشرون وقد فصّل سبحانه تلك الأطوار والأدوار التي قلبه فيها فقال : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) .

ففي هذه الآيات الكريمة أصناف من البينات يقيمها الله حجة على وجوده

ووحدانيته ، وذلك أن هذه الأطوار ثابتة عندكم ، وهذه التقلبات مشهودة لديكم ، لا تشكون فيها ، فمن المطور لها ، ومن هو المقلب لها ، ومن هو المصور لها ومن هو الممد لها بالغذاء والماء ، إذاً لا شك في وجود الله تعالى قال تعالى : (أفي الله شك) أي : لا شك في وجوده ووحدانيته أصلاً .

الفرقان

قال تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وقد جاء القرآن بالهدى وبينات من الهدى في جميع المبادئ التي دعا إليها : الاعتقادية والعملية والخلقية ، وجاء بالفرقان والمراد به الأمر الفارق بين الحق الذي جاء به ودعا إليه ، وما يترتب عليه من محاسن ومصالح ويبين الباطل الذي لا دليل عليه ، وما يترتب عليه من مفاسد وأباطيل وضلالات وخرافات .

فتقدم ذكر هدي القرآن للإيمان بالله تعالى وذكر بعض بينات هديه إلى ذلك .

وأما الفرقان في ذلك فقال سبحانه : (لو كان فيهما آله إلا الله لفسدتا) وبيان ذلك أن يقال : لو كان هناك ربان أو أكثر فإما أن يكون اختلافهما واجباً ، أو يكون اتفاقهما واجباً ، أو يكون اختلافهما واتفاقهما جائزين _ هذه هي الوجوه التي يمكن أن يفترضها العقل لدى السبر والتقسيم .

فإن كان اختلافهما واجباً : بأن يريد أحدهما إيجاد شيء ويريد الآخر إعدامه ، فإما أن يغلب أحدهما الآخر فلا شك أن الغالب هو الرب الإله

الحق ، والآخر ليس بإله حق لعجزه ، وإما أن يغلب كل واحد منهما الآخر فكلاهما ليس برب حق لعجزهما معاً عن الإيجاد والإعدام، ويلزم على ذلك أيضاً ارتفاع النقيضين وهما الوجود والعدم ، وارتفاع النقيضين مستحيل كاجتماعهما ، وذلك أن النقيضين هما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في الشيء الواحد ، ولا يفارقانه ، كالوجود والعدم ، والظلمة والنور ، والحركة والسكون ونحو ذلك .

وأما الضدان فهما المتقابلان اللذان لا يجتمعان في شيء واحد ، وقد يفارقانه كالبياض والسواد .

وإما أن لا يغلب كل واحد منهما الآخر فكلاهما ليس برب حق أيضاً لعجز كل واحد منهما عن أن يغلب الآخر ، ويلزم من هذه الصورة اجتماع النقيضين وهذا مستحيل أيضاً .

(هذه صورة اختلافهما وكلها مستحيلة) .

وإما أن كان اتفاقهما واجباً _ أي : أمراً لازماً في كل ما يفعلانه ، وفي كل ما يريدانه فيلزم منه حينئذ أن يكون كل واحد منهما لا يمكنه أن يفعل فعلاً أي فعل كان ، ولا يمكنه أن يريد شيئاً أي شيء كان حتى يوافقه الآخر على فعل ما يفعله ، أو يوافقه على إرادة ما يريده ، حتى إنه لو لم يوافق أحدهما الآخر على فعل ما يفعله ، أو إرادة ما يريده لما أمكن الآخر أن يفعل شيئاً أصلاً ، ولا أن يريد شيئاً أصلاً .

وعلى هذا فيلزم حينئذ عجز كل واحد منهما معاً في كل ما يفعلانه أو يريدانه ، وذلك لأنه حينئذ لا يتمكن هذا من فعل ما يفعله أو إرادة ما يريده حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته ، وهذا أيضاً لا يتمكن من فعل ما

يفعله أو إرادة ما يريده حتى يوافقه الآخر على فعله وإرادته ، فيكون حينئذ هذا عاجزاً بنفسه عن فعل ما يفعله وإرادة ما يريده حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً أو بالعكس ، أي : ويكون هذا أيضاً عاجزاً بنفسه عن فعل ما يريده حتى يجعله الآخر باتفاقه معه قادراً ، فلا يكون واحد منهما قادراً على فعل ما يريده إلا بأن يجعله الآخر قادراً على ذلك ، حتى لو طلب العبد حاجته من أحد الربين لم يقدر الآخر على قضاء حاجته إلا بأن يأذن له الرب الآخر ويعاونه ويجعله بإعانته واتفاقه معه قادراً أو بالعكس .

بل نقول إن نفس الموافقة ونفس الإرادة فعل من جملة الأفعال وقد فرضنا أن كل واحد من الربين لا يمكنه أن يفعل فعلاً حتى يوافقه الآخر ، وعلى هذا فلا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة ، وبالعكس أي : لا يمكن هذا أن يوافق الآخر على فعل الموافقة حتى يوافقه الآخر على فعل الموافقة ، وهذه الموافقة أيضاً لا يمكن أن يفعلها هذا حتى يوافقه الآخر على فعلها وبالعكس _ وهكذا فيلزم عليه أن لا يكون هذا رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر بموافقته رباً ، والآخر أيضاً لا يقدر أن يجعله رباً إلا بشرط أن يجعله الآخر رباً ن وهكذا يدور الأمر ، وهذا يسمى عند العلماء بالدور القبلي ، وهو باطل يستحيل بإجماع أهل الأرض والسماء .

وهكذا يدور الأمر فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى الآخر حتى يجعله رباً ، فالاستحالة هنا من جهتين : من جهة أن هذا دور قبلي ، ومن جهة أن من عجز أن يجعل نفسه رباً فكيف يقدر أن يجعل غيره رباً ، فلا

يصير هذا رباً ولا يصير هذا رباً ، وعلى هذا التقدير الباطل فلا يكون هناك لا رب واحد ولا ربان ، وإذا لم يكن هناك لا رب واحد ولا ربان فلا توجد السماوات ولا الأرض لفقد الرب ، فهو كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أي : لم توجدا .

لا يقال : قد يتعاون الرجلان على حمل شيء ثقيل مثلاً ، فكيف يكون تعاون الربين مستحيلاً .

لأنا نقول : هذا قياس مع الفارق فرقاناً فاحشاً بعيداً أبعد ما بين الوجود والعدم ، وأين الربين من المخلوقين ، فإن الرجلين المتعاونين مخلوقان ، ليس وجودهما من ذاتهما ، ولا قدرتهما من ذاتهما ، ولا إرادتهما من أنفسهما ، بل لهما رب خلق ، وهو الذي يجعلهما يتعاونان بإلهامه إياهما ، وتزيينه لهما ، وبتحريكه لهما ، وإقدارهما على المعاونة ، فرجعت إثنتيهما إلى وحدة ربهما الذي خلقهما ، وجعلهما يتعاونان ، فكان الرجلان المتعاونان بمنزلة اليدين المتعاونتين على حمل شيء ، فكما أن صاحب اليدين هو الذي يجعلهما بحسب ظاهر الأمر يتعاونان ، ومرجع اليدين له فكذلك بلا تشبيه مرجع الرجلين المتعاونين إلى قدرة الله الواحد ربهما .

فهذان الربان إن لم يكن لهما رب يجعلهما أرباباً فليسا بربين كما قررناه ، وإن كان لهما رب يرجعان إليه كان هو الرب الحق وحده دونهما ، لأن من يحتاج إلى غيره حتى يجعله رباً فهو ليس برب حق ، بل كذاب ، فالرب يجب أن يكون فعالاً لما يريد بنفسه بلا معاون ، قادراً على ما يشاء بذاته بلا مشارك ، كما قال تعالى : (إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد) ، وقال تعالى

: (إن ربك فعال لما يريد) ، وقال تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) . هذا كله إذا كان اتفاقهما واجباً لا جائزاً .

فإن كان اتفاقهما أمراً جائزاً _ أي : يجوز اتفاقهما واختلافهما فلا بد حينئذ من مرجح يرجح أحد الجائزين على الآخر ، فلا بد من حدوث أمر يقتضي اختلافهما تارة فينجران من أجله على الإختلاف ، أو حدوث أمر آخر يقتضي اتفاقهما تارة أخرى فينجران من أجله على الإتفاق ، كما يقع ذلك لملوك أهل الأرض تارة تتفق وتارة تختلف لأمور يحدثها ويجددها رب العالمين ، مالك الملك ، يجرهم بسببها على الاتفاق ، أو على الاختلاف فيقتتلون ، أو يتفقون ، (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) .

فإن فرض جواز الاختلاف الربين تارة واتفاقهما تارة أخرى

فلا بد من حدوث أمر يقتضي اختلافهما واتفاقهما وحينئذ نقول : إن الأمر الذي انجر الربان من أجله على الاختلاف لا شك هو حادث ، وكذا الأمر الذي انجر الربان من أجله على الاتفاق هو حادث ، فلا بد لهما من محدث ، لما تقرر أن كل حادث لا بد له من محدث ، فلا بد لهذين الأمرين من رب خالق يحدثهما ، فخالق هذين الأمرين اللذين انجر الربان من أجلهما على الاختلاف تارة ، أو على الاتفاق تارة ، هو الذي إن شاء ساق الربين بأسباب يحدثها ويخلقها إلى الاختلاف ، أو ساقهما بأسباب إلى الاتفاق ، فهذا الذي إن شاء ساقهما إلى الاختلاف تارة ، أو الاتفاق تارة هو الرب الحقيقي ، لا هذين المجبورين المقهورين تحت رب آخر ، فرجعت الكثرة إلى وحدة هذا الرب سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وبالجملة فهذا أي قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهان تام عقلي قطعي على توحيد الله في ربوبيته وألوهيته ، خلافاً لبعض علماء الكلام من المتأخرين ، فإنه زعم أنه برهان إقناعي لا يكون حجة إلا على عوام الناس لا على الخواص ، وهو خطأ فاحش .

وفي هذه الآية قياس استثنائي ترتيبه هكذا :

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

لكنهما لم تفسدا .

فليس فيهما آلهة إلا الله جل وعلا .

ومن هنا يعلم العاقل إن القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، والدالة على حقية قضايا الإيمان كلها .

هدي القرآن الكريم إلى الإيمان

بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير) .

وقال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) .

وقال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله) الآية صلى الله عليه وسلم .

ففي هذه الآيات الكريمة وأمثالها يهدي الله تعالى العباد ، بمعنى أنه يبيّن

لهم ويدعوهم إلى الإيمان بأن محمداً رسول الله ، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ثم إن الله تعالى يذكر في كثير من الآيات القرآنية حسب المناسبات _ يذكر جملة كثيرة من البينات القطعية التي تثبت أن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً دون شك ولا ارتياب .

وها أنا أذكر بعض ذلك بحيث يستنير للباحث طريق بحثه إذا أراد التوسع إن شاء الله تعالى .

البينات من الهدى التي تثبت قطعاً

أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إن القرآن الكريم لما هدى الناس إلى الإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعاهم إلى ذلك _ أتاهم بالبينات الساطعة لتكون الدعوة قائمة على الحجة القاطعة ، بحيث لا يبقى سبيل إلى التردد أو الشك في حقية رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبذلك يكون الإيمان إيماناً كما قال الله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الآية .

فقد جمع الله تعالى للنبي صلى اله عليه وآله وسلم أنواع البينات القاطعات التي تثبت أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إن الله تعالى سمّاه البينة لأنه مجمع كل بينة ، قال تعالى : (حتى تأتيهم البينة رسول من الله) الآيات .

فمن بينات الهدي القرآني _ إلى الإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم _ هو تحدي العالم أن يأتوا بمثله .

قال الله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) الآية .

وقد جاء التحدي على مراحل :

فقد تحداهم أولاً أن يأتوا بحديث مثله ، قال تعالى في سورة الطور : (أم يقولون تقوله بل لا يوقنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) .

والمعنى إن كان القرآن كما يقولون أن محمداً تقوله على الله تعالى ، وأنه ليس كلام الله تعالى ، فليأتوا بحديث واحد من أحاديث القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم ، فإذا كان محمداً صلى الله عليه وسلم قادراً على أن يتقوّله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بكلام بليغ وفصيح من نظم أو نثر ، فإنه من الممكن أن يأتوا بحديث مثله كما أمكنه صلى الله عليه وسلم .

ثم تحداهم بعشر سور مثله ، قال تعالى في سورة هود : (أم يقولون افتراه قل : فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

ثم تحداهم بسورة واحدة منه ، قال تعالى في سورة يونس : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

وهذه التحديات كانت في مكة المكرمة ، فإن هذه السور هي مكية : سورة الطور ، ويونس ، وهود .

ثم أعلن لهم عجزهم بل عجز الإنس والجن جميعاً عن أن يأتوا بمثله فقال تعالى في سورة الإسراء _ وهي مكية _ : (قل : لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

فأمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعم بهذا الخبر ، معلناً به لجميع الخلائق ، معجزاً لهم ، قاطعاً بأنهم إن اجتمعوا كلهم وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله قطعاً ، وهذا التحدي والدعاء عام لجميع الإنس والجن إلى يوم الدين ، وقد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام ، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يعارضوه ، ولا أن يأتوا بسورة مثله .

ثم إنه سبحانه وتعالى أعاد التحدي في المدينة المنورة بأنوار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعدما هاجر إليها فقال سبحانه في سورة البقرة : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

فلقد تحداهم سبحانه في هذه الآيات الكريمة ثم نبههم وحثهم على التذكر والتفكر،فأورد لهم أمرين هامين ينبغي لهم أن يفعلوهما ويتبصروا فيهما : أحدهما قوله تعالى : (فإن لم تفعلوا) أي لم تستطيعوا بعد بذل جهودكم بجموعكم وجماهيركم _ لم تستطيعوا الإتيان بسورة من مثله قال لهم سبحانه من بعد ذلك : (فاتقوا النار) ، والمعنى فإن لم تفعلوا وعجزتم ، فقد علمتم أنه كلام الله تعالى ، وليس بكلام مخلوق ، فخافوا الله تعالى أن تكذبوا به ، فيحيق بكم العذاب الذي وعد الله تعالى به المكذبين ، واعلموا أن الكلام كلام الله تعالى ، وأن محمداً حقاً هو رسول الله صلى الله عليه

وسلم .

وأمر الثاني قوله تعالى : (ولن تفعلوا) فسجل عليهم العجز عن الإتيان بمثله في المستقبل ، كما أنهم عجزوا في الحال ، وفي هذا علم من أعلام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه من باب الإخبار عن المغيبات _ وأمر كما أخبر .

وإن الكلام على وجوه إعجاز القرآن الكريم يحتاج إلى مصنفات واسعة ، وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى وجزاهم الله تعالى خيراً وجوهاً متعددة للإعجاز كل حسب ما وصل إليه وفتح عليه .

فالقرآن معجز من حيث أساليبه البلاغية ، ونظمه الذي لا يشبه نظم الرسائل والخطب ، ولا النثر المعروف عند الفصحاء ولا الشعراء .

والقرآن معجز من حيث المعاني التوحيدية ، وبيانه قضايا الإلهيات ، وتعريفه بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وكمالاته وأفعاله جل وعلا .

وما يشتمل عليه ذلك من تسبيح الله تعالى وتحميده وتمجيده وتقديسه وعبادته ودعائه وطاعاته .

والقرآن معجز من حيث المعاني التشريعية التي جاء بها من الأوامر أو النواهي الإصلاحية ، التي فيها سعادة العالم ، فهو معجز في تشريعه وأحكامه التي هي مقتضى حكمته سبحانه ، وهي مشتملة على مصالح الأنام ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وكمال الآداب وحسن العشرة ، وحسن المعاملة .

والقرآن معجز من حيث مواعظه وأمثاله وإثباته بالوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب .

والقرآن معجز في قصصه الذي قصَّه ، المشتمل على أنباء الأمم الماضية ،وما اشتمل عليه ذلك من بعثة الرسل ومواقفها مع الأمم الماضية،ومواقف الأمم معهم ، وعواقب الصالحين والفاسدين ، والمسلمين والكافرين .

والقرآن معجز من حيث تعاليمه المناظرات ، وإبراز الحجج الدامغة البالغة ، وأدلته القاطعة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وصدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

والقرآن معجز من حيث إخباراته الغيبية عما مضى ، وعما هو آت ، وإخباره عن العوالم الملكية والملكوتية ، وعالم الملائكة وأوصافهم ووظائفهم ، وعن عالم الجن وأنواعهم ومراتبهم .

والقرآن معجز من حيث إنباؤه عن بدء الخلق عامة ، وبدء خلق الإنسان خاصة ، وأطوار تخليقه ، وإنباءه عن القيامة وما فيها من الحشر والنشر ، ومن عالم الموقف والسؤال والحساب والميزان ، وأخذ الكتب ، والقصص ، والصراط ، والحوض ، والجنة ، والنار ، وحال أهل الجنة جعلنا الله تعالى منهم ، وحال أهل النار أعاذنا الله تعالى العظيم منها .

والقرآن معجز من حيث العلوم والمعارف التي جاء بها ، التي لا تحدد ولا تستقصى ولا تنقضي عجائبها ، ولا يزال يظهر للعقلاء والعلماء وجوه من إعجازه ، ووجوه ، ولذلك قال عبد الله : إن من إعجاز القرآن : العجز عن إحصاء وجوه إعجازه ، بل إن من إعجاز القرآن العجز عن استقصاء الوجه الواحد من وجوه إعجازه .

وخذ مثالاً واحداً على إعجازه البلاغي حول آية واحدة من آياته الكريمة يقول الله تعالى : (قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء

وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل : بعداً للقوم الظالمين) .

فقد ذكر ابن أبي الأصبع أن في هذه الآية الكريمة عشرين ضرباً من البديع ، مع أنها سبع عشرة كلمة ، وذلك للمناسبة التامة ، في ابلعي وأقلعي ، ووجود الاستعارة فيهما ، والطباق بين الأرض والسماء .

والمجاز في قوله تعالى : (يا سماء) فإن المنادي الحقيقي : يا مطر السماء ، والإشارة في : (وغيض الماء) فإنه عبّر به عن معان كثيرة ، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء ، وحتى تبلغ الأرض ما يخرج منها ، فينقص ما على وجه الأرض من الماء .

والإرداف في قوله تعالى : (واستوت على الجودي) .

والتمثيل في قوله تعالى : (وقضي الأمر) .

والتعليل أيضاً فإن غيض الماء علة للاستواء ، وصحة التقسيم :

فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصانه .

والاحتراس في الدعاء في قوله تعالى : (وقيل : بعداً للقوم الظالمين) لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك ، فإن عدله تعالى يمنع من ذلك ، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى .

والإيجاز فإنه سبحانه قص علينا هذه القصة مستوعبةً بأوجز عبارة ، والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها ، والانسجام التام ا هـ .

وزاد العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى بعد أننقل هذا عن ابن

أبي الأصبع _ **الاعتراض .**

وزاد آخرون على أشياء كثيرة ، وقد ألف بعض العلماء الأفاضل رسالة خاصة في هذه الآية الكريمة ، وجمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها ، وبدائعها ، فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية .

وقد تكلم كثير من كبار علماء البلاغة حول هذه الآية الكريمة ، وما فيها من وجوه البيان والمعاني والبديع ، وأجادوا وأفادوا ، ولكنهم ما أحاطوا بما هنالك ، وإن وراء تلك الوجوه التي ذكروها وجوهاً ، ووجوهاً لا غاية لها ولا انتهاء .

وذلك لأن جميع ما ذكروه من وجوه البلاغة إنما هو على حسب قوانين بلاغة كلام العظماء والبلغاء والحكماء والعلماء ، وعلى حسب أساليب قواعدهم ومعارفهم ، ولكنهم عباد من خلق الله تعالى محدودون في علومهم وحكمتهم ، وبلاغتهم ، وأساليب كلامهم .

وإن هذا القرآن الكريم هو كلام رب العالمين ، الخالق الخلاق ، العليم الحكيم ، الذي لا انتهاء لعلمه ولا لحكمته ، وقد تكلم سبحانه بهذا الكلام القرآني عن علمه وحكمته ، وأنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : (أنزله بعلمه) وأنزله موصوفاً بالإعجاز ، فكيف يحاط بوجوه بلاغته وإبداعه ، وهو كلام الله تعالى المعجز ، الذي أعجز البلغاء والحكماء ، وأولي الأنظار والآراء ، مع التحدي لهم ، فلم يستطيعوا معارضته ، لأن كلامه سبحانه فوق البلاغة التي بلغوها ، وفوق العلم الذي وصلوا إليه ، فإن علم الله تعالى إليه المنتهى وهو لا يتناهى ، وحكمته فوق كل حكمة قال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم

الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) .

ولذلك افتتح كثيراً من السور بفواتح حرفية ، مجابها للعالم بالتحدي ، ومعلناً لهم عجزهم عن مثله ، بأن أدخلهم تحت قنطرة العجز والإقرار بإعجاز القرآن من قبل أن يدخلوا في ظلال آياته التالية لتلك الآية المركبة من الحروف المقطعة المفتتح بها .

وبيان ذلك أن افتتاح بعض السور القرآنية ببعض الحروف فيه إعلان للعالم كله وإعلام للفصحاء والحكماء والبلغاء ، بأن هذا القرآن الكريم هو كلام مركب من مثل هذه الحروف : ألف ، لام ، ميم ، ك ، هـ ، ى ، ع ، ص _ إلى ما هنالك ، فإن كنتم ترون أيها البلغاء والفصحاء أن هذا القرآن هو كلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ومن تركيبه ، أو أنه تعلمه من بشر ، أو هو من جنس كلام البشر ، فتعالوا فانسجوا وألفوا وركبوا من هذه الحروف مثل هذا القرآن ولكنكم ما تستطيعون ، فإن لم تفعلوا ذلك وعجزتم ، فيجب عليكم أن تعلموا أن هذا القرآن الكريم هو كلام رب العالمين ، أنزله على سيد ولد آدم أجمعين صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) .

هذا ومن المعلوم أن الحروف في لغة العرب هي نوعان : حروف المباني ، وحروف المعاني .

فالأولى تبنى منها الكلمات ، ومن الكلمات تؤلف الجمل .

وأما حروف المعاني فهي تدل على معان وضعت لها في أصل اللغة ، وهي داخلة في جمل الكلام : ففي : للظرفية ، ومن : للتبعيض أو للابتداء

، ونحو ذلك ، والباء : للإلصاق ، وغير ذلك .

ثم إن قراءة حروف المباني التي تبنى منها الكلمات لها طريقان :

الأولى : أن تقرأ بحقيقتها وهذا هو التهجي كقولك : أ ، ل ، م ،

والثانية : أن تقرأ بأسمائها فيقال : ألف ، لام ، ميم ، وتكون حقيقة الحرف هو أول حرف من اسمه .

فجاء القرآن الكريم مفتتحاً سوراً منه ببعض حروف المباني ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسمائها ، وعلمها للناس ، فمن أين علم ذلك في حين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد نشأ أمياً لم يقرأ كتباً ، ولم يأخذ من معلم ، ولا من أهل الكتاب .

نعم إن ذلك بتعليم رب العالمين وتلقينه إياه ، فهو سبحانه قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) . أي : اقرأ باسم ربك لا بعلمك ولا دراستك ، فإنه صلى الله عليه وسلم ليس له علم بذلك سابق ، ولا دراسة سابقة ، بل هو النبي الأمي صلى الله عليه وسلم .

فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحروف بأسمائها كما أنزلت عليه وعلمها للناس ، وبين فضل تلاوتها قال صلى الله عليه وسلم : (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) .

فذكر صلى الله عليه وسلم حروف القرآن بأسمائها .

على أن افتتاح السور بتلك الحروف فيه حكمة ثالثة ألا وهي : التنبيه على شرف هذه الحروف وعظيم قدرها ، إذ هي مباني كلامه سبحانه ،وكتبه التي أنزلها على رسله صلوات الله عليهم ، ولهذه الكلمات الإلهية معان

عظمى ، ودلالات كبرى ، إنها تدل على معرفة الله تعالى وصفاته ، وكمالاته ، ووحدانيته ، وجماله وجلاله ، وعظيم سلطانه ، كما أنها تعرفنا بعجائب مبدعاته ، وأصناف مخلوقاته ، فحق لها أن يفتح بها ويقسم بها .

وكما أن الله تعالى افتتح بعض السور من القرآن الكريم بآيته الكونية : كالشمس ، والقمر ، والفجر ، والضحى ، والليل ، والسماء ذات البروج ، مقسماً بذلك لما فيها من الدلالات على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وكمال أسمائه وصفاته ، وعظمة قدرته ، وسعة علمه وحكمته .

فقال تعالى : (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) .

وقال تعالى : (والفجر) ، وقال تعالى : (والضحى والليل إذا سجى) ، وقال تعالى : (والليل إذا يغشى) ، وقال تعالى : (والسماء والطارق)، وقال تعالى : (والسماء ذات البروج) إلى ما هنالك .

كذلك أيضاً افتتح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المتلوّة ، فإنها آيات كبرى ، تدل على وجود الله تعالى ، ووحدانيته وصفاته ، وكمالاته ، وقدرته .

بل هي أدل من تلك الآيات الكونية وأعظم ، لأنها تحمل من العلوم الإلهية والمعاني القدسية الربانية ما لا تحمله الشمس ولا القمر ، ولا السماء ، ولا الأرض ، ولا الجبال ، فهي أحق أن يفتتح بها .

قال تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) الآية .

وقال تعالى : (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) أي : لكان هذا القرآن .

وإن هذه الحروف لتحمل روحاً من أمر الله تعالى ، يحي به القلوب والأرواح قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الآية .

فما أقوى هذه الحروف وما أعظمها وما أشرفها ، لقد حملت رسالات رب العالمين ، وكلامه الحق المبين ، الذي فيه بيان أسمائه وصفاته تعالى ، وأفعاله ، وأوامره ونواهيه ، وفيها الخبر عن وعده ووعيده ، ليوصل ذلك إلى عباده _ قال تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) ، وبذلك يهتدون إلى معرفة ربهم سبحانه،ومعرفة حقوقه عليهم،ويعرفون الحقوق والواجبات فيما بينهم ، ومعرفة طريق السعادة ، ومعرفة ما ينفعهم وما يضرهم،وما فيه خيرهم وشرهم ، فحقيق أن تفتتح بها السور القرآنية .

فهذه حكم ثلاثة ذكرتها للقارئ ، تتعلق بافتتاح بعض السور ببعض الحروف القرآنية :

1_ حكمة التحدي بها ، 2_ وحكمة الحجة والشهادة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمه الله تعالى تلاوتها بأسمائها ، مع أنه أميّ صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم

3_ وحكمة التنبيه إلى عظمة هذه الحروف وقوتها ، وأنها آيات الله الكبرى الدالة عليه سبحانه كما تقدم تفصيله .

وهناك حكم وحكم وليس موضع تفصيلها هنا ، وأرجوا الله تعالى أن يوفقني لبسط الكلام وتفصيله حولها في موضع آخر _ آمين .

ولكن أريد التنبيه كل التنبيه ، إلى أن كل حرف من هذه الحروف التي افتتحت بها السور هو مقصود بذاته ، وأن كل حرف منها يدل على معنى ، وأن كل حرف منها لله تعالى به مراد .

فليست هذه الحروف المفتتح بها من باب السرد ، أو العد ، وليست من باب صف حروف كحروف الهجاء ، ليس لها معنى ،أو ليس لله تعالى بها مراد ، أو لا تدل على شيء ، وإنما أريد بها حرفيتها المفردة دون معنى آخر، كحروف الهجاء التي تقرأ هكذا : كلا ولا ، كما يتوهم ذلك البعض بحجة أن المقصود منها التحدي لا غير _هذا فهم خاطئ ، ولم يقل بذلك أحد من العلماء المتقدمين ، ولا المفسرين ، وإنما وهم سرى لبعض أدعياء الثقافة في العصر الحاضر .

بل اتفق العلماء رحمهم الله تعالى على أن هذه الحروف المفتتح بها بعض السور لله تعالى بها مراد ، ولها معان مقصودة ، ولو لا ذلك لكانت من باب الحشو ، أو الزيادة ، أو الفضول ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك ، فإنه معجز ، وأعلن إعجازه ، وأعلن التحدي ، وإن الحشو والزيادة ينافيان الإعجاز والإيجاز ، بل يتنافيان مع البلاغة العربية بوجه عام .

وهذا أمر يجب اعتقاده ، وهو أن القرآن الكريم لا حشوَ فيه ولا زيادة ولا فضول ، بل إن جميعه بجمله وكلماته وحروفه كل ذلك هو عمدة وأصول ، وأن هذه الحروف المفتتح بها السور لله تعالى فيها مراد ، وله فيها معان مرادة ، وله فيها حكم كبيرة وكثيرة .

وكيف يصح أن تكون تلك الحروف المفتتح بها السور _ لاغية لا مراد منها ولا مقصود بها ، بل هي حشو وزيادة ، كيف يصح هذا وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي ما ينطق عن الهوى ، أن تلك الحروف هي من كلام الله تعالى وآياته ، وأن قارئها وحدها يؤجر عليها كما يؤجر على تلاوة غيرها من آيات القرآن الكريم أجراً مضاعفاً .

فقد قال صلى الله عليه وسلم : (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) ، والمعنى أن من قرأ (الم) وحدها فقد ظفر بثلاثين حسنة .

فقد نص صلى الله عليه وآله وسلم على فضل تلاوة الفواتح من الحروف ، ليزيل الأوهام ، ويصحح الأفهام ، وليبين للناس أنها عمدة وأصول ، لا زيادة ولا فضول ، ولها معان ، ولله تعالى فيها مراد .

إذاً ما هو المراد بها المقصود منها ؟

فإن قيل : المراد المقصود منها هو التحدي فحسب وليس وراء ذلك مرمى ولا مراد آخر .

يقال : إذا كان المقصود هو التحدي فحسب ، فإنه يكتفي حينئذ بافتتاح سورة واحدة بالحروف ، وتكون المفتتح بها هي أول سورة نزلت ،وبذلك يحصل التحدي بالنسبة لتلك السورة ، وبالنسبة لبقية السور بعدها .

أو تفتتح جميع السور بمثل هذه الحروف ، باعتبار أن كل سورة من القرآن يتحدى بها ولو قصيرة كسورة : (إنا أعطيناك الكوثر) ونحوها كما هو معلوم .

فلم خصصت بعض السور دون بعض بافتتاحها بتلك الحروف ، ولم افتتحت هذه السورة بحروف غير الحروف التي افتتحت بها تلك السورة الأخرى ؟ ، ولم افتتحت بعض السور بحرف مثل : (ق) ، و (ن) ، وبعض السور بحرفين مثل : (حم) ، وبعضها بثلاثة أحرف مثل : (الم) وبعضها بأربعة أحرف مثل (المر) ، وبعضها بخمسة أحرف مثل : (

كهيعص) .

ولم افتتحت سورة البقرة ب (الم) . وغيرها ب(المر) وغيرها ب (حم) ، وهكذا فإن تخصيص بعض السور بحروف دون غيرها لا بد له من وجه التخصيص .

وإن تخصيص بعض السور بحرف ، وثمة بحرفين ، وتلك بثلاثة ، وهكذا لا بد وأن له وجهاً مخصصاً وسبباً مميزاً ، تترتب حكم بالغة عليه .

قال تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

فهذا الكتاب القرآني محكم كله ، حصين رصين ، لا خلل فيه ولا حشو ولا فضول .

على أن في افتتاح بعض السور القرآنية دون بعض _ بشطر عدد جملة الحروف من حيث الذات والصفات ، وتخصيصها بالافتتاح دون بقية الشطر الآخر _ إن في ذلك وجوهاً من الحكم تقتضي ذلك ، فإن كلام الحكيم العليم منزه عن العبث .

قال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

ومن هنا يعلم اللبيب يقيناً : أن لهذه الحروف معاني سامية ، وأن لله تعالى بها مراد .

إذاً ما هو المعنى المراد ؟

نعم جرى كثير من العلماء رحمهم الله تعالى عند تفسير هذه الحروف _ على القول بأن الله تعالى أعلم بمراده منها .

وهذا إقرار صريح منهم بأن لها معاني مقصودة ، وأن لله تعالى فيها مراداً

، أي أن لها معنى أراده الله تعالى بها ولكن لم يجزموا بتعيينه .

وقد ذهب كثير من العلماء المتقدمين وكثير من المفسرين رحمهم الله تعالى إلى البحث في المعاني المرادة بفواتح السور ، وكانت نتيجة بحثهم وتتبعهم لأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم_أن كل حرف من تلك الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، حسب المناسبة لما وراءها من الآيات الكريمة ، وذلك من باب إطلاق الحرف من الكلمة وإرادة الكلمة ، وقد نقلوا ذلك عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم وعن التابعين من بعدهم ، نقولاً ثابتة ، وهذا هو الحق كما يتضح ذلك فيما يلي .

فإن قال قائل : إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين كما قال تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) .

كما أن فهمه ينبغي أن يكون على الأسلوب العربي المبين . قال تعالى : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ، أي : لعلكم تعقلون معانيه على منهاج اللسان العربي المبين .

فهل جاء في لسان العرب الفصحاء أنهم يطلقون الحرف الواحد ويريدون به الكلمة كلها ؟

فالجواب عن ذلك أن يقال :

أولاً _ لقد جاء في فصيح لسان العرب أنهم يطلقون الحرف ويريدون الكلمة بتمامها وأكثر ما يكون ذلك بين الأحباب ، أو بين أولي الأفهام والألباب .

فقد نقل كبار من أهل العلم والمعرفة في التفسير ولغة العرب شواهد من

كلام العرب الفصحاء وأشعارها تدل على أن العرب كانوا كثيراً ما يستغنون بذكر الحرف من الكلمة عن ذكرها بتمامها ومن ذلك قول الشاعر:

جاريه قد وعدتني أن تا تدهن رأسي ، أو تفلي أو تا

أراد أن تأتي وتدهن رأسه ، أو تفلي ، أو تمسح .

وقال الآخر :

نادوهم ألا الجموا ألا تا قالوا جميعاً كلهم ألا فا

أراد : ألا تركبوا : قالوا ألا فاركبوا .

وقال الآخر :

قلت لها : قفي فقالت : قاف لا تحسبن أنا نسينا الإيجاف

أراد قالت وقفت .

وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شراً فشر : إلا أن تشاء

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله)) .

ورواه البيهقي من طريق أخرى ورواه الأصبهاني وزاد فيه : قال سفيان بن عيينة : هو أن يقول : أق ، يعني لا يتم كلمة اقتل ، بل يذكر بعضها مكتفياً عن إتمامها .

وقد كثر استعمال ذلك في فصيح لغة العرب كما نص عليه الأمام الزجاج

وغيره من أساطين اللغة العربية ، ومن أراد التوسع في هذا الباب فعليه بمطولات كتب اللغة العربية ومطولات التفاسير المتقدمة .

ثانياً _ لقد صح عن جماعة من أكابر الصحابة ومنهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وابن عباس حبر الأمة وأبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، كما صح عن كثير من التابعين ومن بعدهم أن هذه الحروف التي افتتحت بها السور كل حرف منها دال على كلمة _ أي : اسم _ حذف أكثرها ودل هذا المنطوق به على ذلك المحذوف ، وذكروا تلك الأسماء المومى إليها ، ومن المعلوم قطعاً أن الصحابة رضي الله عنهم هم أعلم من غيرهم بكتاب الله تعالى ، ومن البعيد كل البعد أن يجهلوا المراد بتلك الحروف ، بل كانوا على علم بالمراد منها بسبب جودة فهمهم ، وسلامة فطرتهم وطبعهم ، وأصالتهم ومكنتهم في لغة العرب .

ولو فرض أنهم كانوا لا يعلمونها لسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها لم تأت في سورة واحدة من القرآن الكريم ، بل افتتحت بها سور متعددة كثيرة ، فكيف يسكتون عنها على جهل بها دون أن يفهموا المراد بها وهم يتلونها آناء الليل وأطراف النهار ؟ !!

وكيف يتصور العقل أنهم كانوا لا يعرفون المعني بها وقد كانوا إذا اعتراهم إشكال حول آية أو كلمة من كتاب الله تعالى سألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء ذلك في كثير من الأحاديث .

فلو كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني تلك الحروف ومراميها لسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً .

بل كيف يتصور العقل أنهم لا يعرفون المعني بها في حين أن المنهاج

الدراسي الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم في تعلمهم القرآن ودراسته كان يوصلهم إلى العلم بمعاني آيات الله وفهم كلماته .

فقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا من كان يقرئنا _ أي يعلمنا القرآن _ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات فلا يأخذون من العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه العشر من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا العلم والعمل .

ومن هنا تعلم أن أقوال الصحابة حول الحروف المفتتح بها السور ، لها حكم المرفوع :

أولاُ : لأن منهاج تعلمهم يقتضي ذلك ، **ثانياً :** لأنه لا مجال لتدخل الرأي في ذلك كما هو معلوم عند المحدثين .

فالقول الصواب والله تعالى أعلم أن هذه الحروف التي افتتحت بها السور هي تشير إلى أسماء الله تعالى ، ومنها ما يشير إلى أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنزل عليه أو صفاته .

وقد تختلف أقوال السلف في تعيين ذلك الاسم المومى إليه بذلك الحرف ، كما اختلفت أقوالهم في معاني الآية الواحدة من كتاب الله تعالى اختلاف تنوع لا تضاد .

ولكن لا بد من مناسبة بين تلك الأسماء المشار إليها وبين آيات السورة التي تليها ، يفهم ذلك من رزقه الله تعالى الفهم والعلم بكتابه جل وعزّ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لما سئل : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء من القرآن من دون الناس ؟

فقال : (لا) ، ثم قال في جوابه : (إلا كتاب الله ، وإلا فهماً يؤتيه الله تعالى عبداً في كتابه) . ا هـ .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك الفهم المحمدي _ آمين .

وقد قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : فواتح السور فيها أسرار إلهية يفهمها من فهمه الله تعالى . ا هـ

فهذه الحروف المفتتح بها السور لها معان ، ولله تعالى فيها مراد ، وجاء التحدي بها لزوماً ، كما أن بقية الآيات القرآنية لها معان ، وفيها بيان الأحكام الشرعية والكونية ، والوعد والوعيد ، والقصص لأخبار القرون والأجيال السابقة ، وغير ذلك ومع هذا فهي متصفة بالإعجاز وفيها التحدي لجميع العالم .

هذا وإن البحث في بيان تعيين تلك الأسماء المشار إليها بتلك الحروف التي افتتحت بها السور ، والبحث في بيان مناسبة تلك الإيماء لتلك السور ، وبيان بقية وجوه الحكم في افتتاح تلك السور القرآنية بتلك الحروف ، وما في ذلك من أسرار ومعارف _ ليس موضع بحثها هنا ، وأرجو الله تعالى أن يوفقني لتفصيل ذلك حين أتكلم حول علوم القرآن إن شاء الله تعالى ، وأما كلامي الأن في ذلك فهو كعابر سبيل لمناسبة ما .

والآن أعود إلى أصل الموضوع حول عظمة القرآن الكريم ، وعظمة إعجازه فأقول : إذا علمت أيها العاقل اللبيب ، عظمة هذا القرآن الكريم ، وعظمة إعجازه _ علمت عظمة المتكلم به ألا وهو الله رب العالمين جل جلاله ، وعلمت حقاً صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه رسول الله حقاً ، فإن هذا القرآن الكريم هو بينة ساطعة ، وحجة

قاطعة ، تثبت أن محمداً رسول الله تعالى ، جاء بهذا القرآن الكريم من عند الله تعالى .

ولذلك أقام الله تعالى الحجة على العباد ، وأفحم أهل الكبر والعناد الذين راحوا ينكرون نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته العامة لجميع العباد والبلاد _ فبين لهم جميعاً أن محمداً هو رسول الله تعالى ، قد جاء ببينته على ذلك وأن قصته ليست هي دعوة رسالة مجردة عن الحجة ، بل هي ثابتة بالبينة الدامغة والحجة البالغة ، كما أن دعوته إلى الله تعالى هي على نور وبصيرة قال تعالى : (قل : هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) الآية . وإلى ذلك كله يشير قول الله تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) . فهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه على بينة من ربه ، تثبت قطعاً أنه رسول الله تعالى حقاً وهذه البينة هي القرآن العظيم الذي جاء به ، فإنه أعظم بينة ، وأجمع وأقطع بينة ، وأسطع بينة ، وإليها المنتهى وليس لها انتهاء .

والبينة في الأصل اللغوي هي : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية ، وقد تطلق على الدليل مطلقاً ، وهاؤها للمبالغة أو النقل .

وتنوين البينة في الآية الكريمة للتعظيم ، لأن بينة القرآن هي أعظم البينات ، وأي بينة أعظم من هذه : القرآن العظيم الذي أعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل سورة واحدة ، وقد تحدى ويتحدى جميع العالم ، وأعلن عجزهم

عن الإتيان بمثله .

ويدل على أن المراد بالبينة هي القرآن العظيم ، السباق السابق وهو التحدي في قوله تعالى : (أم يقولون افتراه قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فأعلموا أنما انزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) .

كما يدل على ذلك _ أي المراد بالبينة القرآن الكريم _ اللحاق بقوله تعالى : (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) الآية وهذا نظير قوله تعالى في سورة الأحقاف : (ومن قبله كتاب موسى أماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) .

ثم قال سبحانه : (ويتلوه شاهد منه) أي : ويتلوا هذا القرآن المدلول عليه بكلمة (بينة) يتبعه في تصديق هذا الرسول الكريم ، وحقية نبوته شاهد منه صلى الله عليه وسلم ، وهو تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لهذا القرآن الكريم في حين أنه أمي لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وليس له سابقة دراسة كما قال سبحانه : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وقال سبحانه : (قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) .

والمعنى أني لبثت فيكم قبل أن ينبئني الله تعالى _ أربعون سنة ولم أتل عليكم شيئاً من ذلك ، لأنه لا علم لي بذلك ، حتى إذا بلغت الأربعين ، فإن الله تعالى نبأني وأنزل علي هذا القرآن الكريم ، وأقرأنيه وجمعه لي في صدري ، وأمرني أن أتلوه عليكم ، فاعقلوا تعلموا صدق نبوتي ، وحقية

رسالتي قطعاً صلى الله عليه وسلم .

ويجوز أن يراد بالشاهد منه صلى الله عليه وآله وسلم _ سنته وأحاديثه الشريفة فإنها عن وحي نبوي من الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم : (ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه) الحديث رواه أبو داوود وغيره .

فالبينة في الآية الكريمة هي القرآن الكريم ، والشاهد منه أحاديثه النبوية ، وكلاهما عن وحي من الله تعالى ، لكن هناك الوحي القرآني وهناك الوحي النبوي ، والقرآن الكريم معجز ، والحديث النبوي جامع للكلم ، وهو المسمى بالحكمة ، قال الله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) .

وهو الميزان المقرون ذكره بالقرآن ، قال تعالى : (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) كما بينت ذلك في مواضع متعددة .

ويجوز أن يراد بالشاهد منه صلى الله عليه وسلم _ ما أجراه الله تعالى على يده صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات وخوارق العادات ، وهذا باب واسع تدخل فيه المعجزات السماوية والأرضية ، والشجرية والجمادية ، والإخبارات الغيبية ، وما جاء في تكثير الطعام والشراب ؛ إلى ما وراء ذلك ، وما جاء في كفاية الله تعالى له شر أعدائه وفي ذلك يقول سبحانه : (إنا كفيناك المستهزئين) .

وما جاء من وقاية الله تعالى له وحفظه من أعدائه ، وفي ذلك يقول سبحانه : (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

وما جاء من وقاية الله تعالى له وحفظه من أعدائه ، وفي ذلك يقول سبحانه : (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

وما جاء في انشقاق القمر تصديقاً لنبوته واستجابة لدعوته وفي ذلك يقول

سبحانه : (اقتربت الساعة وانشق القمر) الآيات .

وما جاء من نصر الله تعالى له على أعدائه أولي العدد والعدة ، وانهزامهم ووقوع الخيبة عليهم وفي ذلك يقول سبحانه عما أيده به يوم بدر : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) الآيات الكريمة ، ويوم حنين وفي ذلك يقول سبحانه : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) الآيات .

وهنالك معجزات ومعجزات ، كلها شواهد صدق وأدلة حق ، تثبت أن سيدنا محمد هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً لا ريب فيه .

وهذه الوجوه التي ذكرت حول تفسير الشاهد منه صلى الله عليه وسلم كلها حق ، وتدخل كلها تحت قوله تعالى : (ويتلوه شاهد منه) ويكون المعنى : ويتلوه شاهد منه إثر شاهد وهكذا دواليك ، وهذا له نظائر في فصيح لغة العرب .

القرآن الكريم

يخبر عن أوصاف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

المذكورة في الكتب السماوية

وهذا من بينات هدي القرآن الكريم

قال الله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم

الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما).
وقال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المفلحون) .
اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الله تعالى مخبراً عن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام :
(ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) الآية الكريمة .
فقد أخبر القرآن عن ذكر هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة والإنجيل ، وأنه بشر به ، عيسى بن مريم عليه السلام .
ولا شك في أن إخبارات القرآن الكريم هي حق ، وهي حقيقة الوقوع قطعاً لا يرتاب في ذلك عاقل ، يدلك على ذلك وجوه من الأدلة القطعية :
أولاً- أن الإخبارات عن ذكره صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ، وعن بشارة عيسى عليه السلام ، جاء ذلك في القرآن الكريم ، والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى حقاً بدليل أنه معجز عن الإتيان بمثله ، وإذا كان كذلك فهو كلام الله تعالى حقاً ، (ومن أصدق من الله قيلاً) . وقد جاءنا بتلك الإخبارات عن الكتب السابقة ، التوراة والإنجيل فلا شك إذا أنه صلى الله عليه وسلم مذكور فيها قطعاً .
ثانياً - أن إعلامه صلى الله عليه وسلم أهل الكتابين بذلك ، وإعلانه لهم بأنه مذكور في كتبهم : التوراة والإنجيل ، واحتجاجه عليهم بذلك - هو

أكبر دليل عقلاً على ثبوت ذلك قطعاً ، فإن أحداً من العقلاء لا يقدم على إعلان ذلك ولا يمكنه أن يحتج بذلك إلا بعد أن يكون على يقين قطعي بثبوت ذكره في تلك الكتب ، وإذا لم يكن على يقين بذلك لا يقدم على إعلان ذلك ، مخافة أن يكذب بأن يقال له : هذه التوراة ، وهذه الأناجيل وليس فيها شيء مما تقول ، وحينئذ يعود الأمر عليه بالنقض لدعوته وحجته عليهم .

كلا بل لقد أعلن لهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلمهم ، واحتج عليهم بما هو في كتبهم ، ولم يستطيعوا أن ينكروا ذلك ولكنهم كما وصفهم الله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) .

وقال تعالى فيهم : (وكانوا من قبل ـ أي : من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ـ يستفتحون على الذين كفروا ـ أي : يقولون للمشركين سيظهر رسول قريباً ونكون معه وننتصر به عليكم _ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) ، والكفر هو ستر نور الحق بعد ظهوره .

ثالثاً _ إن النقول الثابتة بالأسانيد الصحيحة عن علماء أهل الكتاب الذين أسلموا ، والتي جاءت عن الصحابة الذين كان لهم اطلاع على التوراة والإنجيل _ هي تدل على ذلك وتثبته .

فقد روى البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمر بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة .

فقال : أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن :

((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ،ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)) .

وروى الترمذي وغيره عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (مكتوب في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعيسى بن مريم يدفن معه) .

وروى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سمعت النجاشي صاحب الحبشة رحمه الله تعالى يقول : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنه الذي بشَّر به عيسى عليه السلام ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمور الناس لأتيته حتى أحمل نعليه) .

وهناك نقول كثيرة بأسانيد صحيحة تخبر عن ذلك .

القرآن الكريم

يذكر وقائع كبرى فيها خرق للعادة

أجراها الله تعالى معجزة مصدقة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم

تشهد بصدق رسالته وحقية رسالته

وهذا من بينات هدي القرآن الكريم

لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم وقائع كبرى خارقة للعادة ، أجراها الله تعالى معجزة لرسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، شاهدة بصدق نبوته ، وبينة على حقية رسالته ، سجل ذلك في القرآن الكريم ، لتكون حجة على جميع الأمم ومختلف الأجيال والقرون إلى يوم الدين ، لأن فيها الإعجاز لجميع الطبقات ، والإعجاز لسائر أنواع القوات والطاقات .

فمن ذلك معجزة انشقاق القمر التي شاهدها جماهير من البشر ورأوها رؤيا عين وبصر .

قال الله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر) الآيات .

وذلك أن صلى الله عليه وآله وسلم حين كان في مكة قبل الهجرة ، وقد أراهم من الآيات وخوارق العادات ، وأتاهم بالأدلة والبينات فمنهم من آمن ومنهم أبى وأعرض وعارض ، فراحوا يقترحون عليه أموراً معاجزين له ، يرون أنها مستحيلة الوقوع فسألوه أن يشق لهم القمر .

ففي الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه : (أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما) . زفي رواية فقال لهم صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) .

وفي رواية لأصحاب السنن انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة .

فقال رجل : إنتظروا ما يأتيكم به السفار _ أي المسافرون القادمون فإنهم كانوا يركبون الليل _ فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك _ أي بأنهم رأوا القمر قد انشق .

وفي رواية لأبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ، والعاصي بن وائل والعاص بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث _ وهؤلاء صناديد المشركين وعتاتهم _ فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن كنت صادقاً فشق لنا هذا القمر .

فقال لهم صلى الله عليه وسلم : (إن فعلت ذلك تؤمنوا ؟) .

قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر .

فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوه : فصار القمر نصفين متباعدين ، وجعل صلى الله عليه وسلم ينادي بهم : (اشهدوا) .

وقد صدر الله تعالى سورة القمر بذكر انشقاق القمر ، ليعلن سبحانه للعالم أن بينات صدق نبوته صلى الله عليه وسلم هي ظاهرة ظهور القمر ، وأنه الرسول المحدث عن بعثته في آخر الزمن ، وعلى نهاية أمته تقوم الساعة ، ولذا قرن ذكر هذه المعجزة باقتراب الساعة ، وأيضاً ليبين للفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم فنائه _ بين لهم أن العالم هو آيل إلى الفناء لا محالة ، وأن القيامة حق بدليل انشقاق القمر ، وهو من جملة الكواكب السماوية العظام ، وحيث أن القمر جاز عليه وقوع الإنشقاق ، فيجوز عليه

الدمار ، وإن انصداع الجدار دليل خرابه ، وهكذا بقية الكواكب فإنها مثله ، وهكذا كوكب الأرض لا فرق بين ذلك كله .

وقد ذكر سبحانه في سورة القمر تلك الوقائع الكبرى التي أيد بها رسله ، وكانت كلها معلومة عند أهل الكتاب ومعروفة لدى جميع قبائل العرب بالتناقل .

وصدر سبحانه ذكر تلك الوقائع الكبرى _ بالواقعة التي هي أكبر وأبهر وأظهر ، وهي انشقاق القمر معجزة لرسول الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لأنها معلومة بالمشاهدة والمعاينة ، شاهدها كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، وعاينها جمع كبير من كفار قريش لأنهم هم اقترحوها وتداعوا إلى الاجتماع لمعاينتها .

ولا يضر خفاؤها عن بعض العيون إذ ذاك لأنها نائمة أو لعدم تطلعهم إلى القمر إذ ذاك في تلك المدة الوجيزة ، وإن كثيراً من الناس قد يخسف القمر وتطول مدة خسوفه ساعات طويلة من الليل ، ولكنه لا يشعرون لانشغالهم بالنوم ، أو لمكثهم داخل بيوتهم ، أو عدم انتباههم لذلك .

وقد ذكر سبحانه في سورة القمر _ وقائع مؤيدة لنوح عليه السلام ، وهود وصالح ، ولوط ، وموسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

فذكر طوفان نوح ، والريح العقيم المرسلة على عاد قوم هود ، وذكر ناقة صالح ، وذكر طمس أعين المسرفين من قوم لوط وأخذهم بالصيحة ، وذكر أخذه لفرعون وملائه أخذ عزيز مقتدر .

وكلما ذكر سبحانه واقعة من تلك الوقائع عقبها بقوله : (فهل من مدكر) .

ولما ذكر سبحانه واقعة الانشقاق في صدر السورة عقبها بقوله : (وكذبوا

واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر) .

فعنف كفار قريش وغيرهم ممن أعرض عن الاعتبار بهذه الواقعة الكبرى والمعجزة العظمى ، ولم يتذكر ولم يزدجر .

ثم إنه سبحانه بعدما ذكر عواقب المكذبين لرسلهم من تلك الأمم ، وجه الإنذار لكفار قريش وحذرهم من العناد والإصرار على الكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما ظهرت لهم معجزاته فقال لهم سبحانه : (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر) . وكان الأمر كذلك يوم بدر كما هو معلوم .

وهذا كله دليل تحقق وقوع انشقاق القمر ، معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغت أحاديث انشقاق القمر حد التواتر المفيد لقطع كما نص عليه المحدثون .

ويذكر سبحانه من بينات صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظ الله تعالى له ليلة هجرته حين رقبه المشركون ليقتلوه ، ويقول في ذلك سبحانه : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .فخرج صلى الله عليه وسلم من بين الصفين ورماهم بكف من التراب ، فنثره على رؤوسهم ووجوههم وهم لا يرونه صلى الله عليه وسلم حتى الصباح ، فجاءهم رجل وقال : لهم لقد رأيت محمداً صلى الله عليه وسلم في مكان كذا وكذا .

وأرسلوا وراءه طلب وحفظه الله تعالى في طريق هجرته ، إذ آواه إلى

الغار وحصن له الغار بحصانته سبحانه ، وجاءت العنكبوت فبنت العنكبوت وعشش الحمام وأعمى عنه الأبصار .

وفي ذلك يقول سبحانه : (إن لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا) الآية .

ومن بينات صدق نبوته صلى الله عليه وسلم التي ذكرها القرآن الكريم تلك الرمية التي أجراها الله تعالى على يده بكف من الحصى فأصابت وجوه الأعداء كلهم يوم بدر ، وليس ذلك من قدرة البشر وفي ذلك يقول سبحانه : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) الآية .ووقع نظير ذلك يوم حنين أيضاً كما تقدم .

هذا وإن البحث حول خوارق العادات التي أجراها الله تعالى معجزة مصدقة لنبيه وحبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم _ مما هو مذكور في القرآن الكريم وما ورد في كتب الأحاديث النبوية _ البحث في ذلك مفصلاً سوف يأتي إن شاء الله تعالى في موضعه .

وهكذا القرآن الكريم يذكر أنواعاً من بينات صدق نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويذكر فصولاً من الفرقان بين الحق الذي جاء به ودعا إليه صلى الله عليه وسلم ، وبين الباطل الذي ادعاه ودعا إليه أهل الباطل ، وأقام عليهم الحجة ، وألقمهم حجر الخذلان ، وأذكر لك جملة موجزة فيما يلي إن شاء الله تعالى :

القرآن الكريم

يرد على من زعم أن القرآن الكريم

من تلقاء رسول الله صلى الله عليه

وسلم وكلامه

لقد رد القرآن الكريم على من زعم أن هذا القرآن الكريم هو من كلامه صلى الله عليه وسلم ، أو أنه تلقاه عن أهل الكتاب أو اطلع على كتبهم وجمعه وصاغه بأساليب العربية الفصيحة إلى آخر ذلك ، وأثبت أن هذه الدعاوي والمزاعم باطلة مردودة قطعاً من عدة وجوه :

أولاً _ إن هذا القرآن الكريم جاء بصفة ذاتية ، وصبغة أساسية ، لا تنفك عنه ولا ينفك عنها وهي : صفة الإعجاز .

فلقد أنزله الله تعالى على وصف مباين لأوصاف كلام البشر ، ومغاير لأساليبهم ، فهو كلام منظوم ولكنه ليس بشعر ولا منثور ، ولا يشبه نظمه نظم الرسايل ، ولا نظم الخطب ، ولا الإشعار ولا أخبار الكهان .

وقد تحدى جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثله إن ارتابوا في أمر هذا القرآن ، وزعموا أنه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فقال تعالى : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) .ثم نقصهم تسع سور وانتهى معهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فقال تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) .

ثم أعلمهم بعجزهم عن ذلك حالاً ومالاً ، وأعلن ذلك إعلاناً باقياً إلى يوم الدين ، يقصم ظهر كل من تحدثه نفسه بالمعارضة ، وينكث رأس كل من

يزعم أن هذا القرآن هو من صنع البشر وصياغته ، وإنما هو كلام رب البشر ، المعجز للأولين والآخرين فقال سبحانه : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

يعني إذا لم تقدروا على الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن الكريم بعد جهودكم المبذولة ، وجموعكم المحشودة ، فاعلموا أنه ليس من كلام البشر فلو كان من كلام البشر لقدرتم على مثله ، وإنما هو كلام رب العالمين ، فآمنوا به وبرسوله ، ولا تكفروا ، وبذلك تقون أنفسكم من عذاب النار التي أعدت للكافرين .

وقد أعلن الله تعالى إعلاناً عاماً لجميع الإنس والجن على مختلف طبقاتهم وأجيالهم ، وتوالي عصورهم _ بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم ، ولو بذلوا كل جهودهم وطاقاتهم بالتعاضد والتعاون : قال سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وفي هذه الآية الكريمة أنواع من التحديات المتضاعفة ، والمتعاطفة المتكاتفة ، التي تلهب النار في قلب الخصم المعاند ، وتهد أركان المعارض الجاحد ، وذلك أنها تطالبه أن يأتي بمثله : حديثاً ، أو سوراً ، أو سورة واحدة ، فإذا لم يقدر فتحداه أن يتعاون مع بني جنسه من الفصحاء والحكماء والعلماء على الإتيان بمثله ، فإذا عجز فهو يتحداه ويطالبه بأن يستعين على ذلك بكافة بني جنسه الإنس وغير بني جنسه الجن ، ثم يسجل عجز الكل عن ذلك جميعاً أو أشتاتاً ، ويعلن منشور هذا العجز على مسمع ومشهد جميع الأجيال ، وتوالي القرون ، ومع هذا

التحدي الملهب الحار اللاذع لهم لم يتقدم لذلك أحد ولن يتقدم أبداً .

ثانياً _ إن كل عاقل يستبعد كل البعد ، ويرى من المستحيل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس ائتوا بسورة بمثل ما جئتكم به من القرآن ، ويقول لهم إنكم لن تستطيعوا ذلك ، فإن أتيتم به فأنا كاذب _ يستحيل أن يقول ذلك وهو يعلم من نفسه أن القرآن لم ينزل عليه ، وأنه هو الذي تولى وضعه وصياغته ، ويعلم أنه لا بد وأن يكون في قومه من يعارضه وينظم له من الكلام بالتعاون والتعاضد مع من هو مثله باعتبار أن فيهم البلغاء والفصحاء والحكماء ، وهم قد بلغت فيهم البلاغة العربية في ذلك العصر أوجها الأعلى ، وهو يعلم أنهم إن أتوا بمثله فهو حينئذ تبطل دعوته ، وينتقض أمره أبداً ، فإن من المستحيل أن يقدم عاقل على ذلك **!!** فكيف يقدم على ذلك من أثبتت الشواهد والوقائع أنه أعقل العقلاء صلى الله عليه وآله وسلم .

إذا فهذا دليل قاطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل ائتوا بمثل هذا القرآن إن استطعتم ، ويقول لهم إنكم لن تستطيعوا ذلك _ لم يقل هذا إلا وهو واثق كل الثقة ، وموقن كل الإيقان أنهم لا يستطيعون ذلك ، لأنه ليس من جنس كلام البشر ، ولا من عنده ، بل هو كلام الله تعالى المعجز للعالمين .

كما أن ذلك يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقينه بعجزهم عن الإتيان بمثله صادراً من قبل نفسه ، وإنما حصل له ذلك اليقين من ربه تعالى الذي أنزله عليه ، وأوحاه إليه ، وأخبره بعجزهم عن ذلك .

على أن الإخبار عن عجزهم إلى يوم الدين _ هذا أمر غيبي ليس من وسع

البشر أن يحيط به علماً ، وإنما يحيط به علماً هو الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك .

ثالثاً _ أنه صلى الله عليه وسلم لما تحداهم وقال لهم : (فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) طالت المهلة وامتدت بهم المدة ، واتسعت لهم أوقات النظر في ذلك ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم يتحداهم بشدة وإزعاج ، مع شتم آلهتهم ، وتسخيف آرائهم ، وتشتيت شملهم ، وتفريق جمعهم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الحرب والقتل والضرب ، فقتلت صناديدهم ، وسبيت ذراريهم ونساؤهم ، وسلبت أموالهم ، ومع ذلك لم يتعرض أحد منهم لمعارضة هذا القرآن والإتيان بسورة مثله .

فلو كانوا قادرين على ذلك لتسارعوا كلهم متعاونين ليفتدوا به أنفسهم وأولأدهم وأهلهم وأموالهم ، إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وبيان ، وشعر وخطابة ، وهم مصاقع اللغة العربية الفصيحة ، فلما عجزوا ولم يأتوا بذلك مع التحدي اللاذع ، والتحريض القامع ، تبين قطعاً أنهم كانوا عاجزين عنه بل كانوا مقرين بعجزهم .

ولذلك لم يطلبوا منه مدة يمهلهم فيها حتى يجمعوا أمرهم ، ويوحدوا صفوفهم ، لمعارضة هذا القرآن المعجز ، والإتيان بسورة مثله _ لم يستمهلوا ولم يطالبوا بإنظارهم لا مدة قصيرة ولا مدة طويلة الأمد ، لعلمهم القاطع أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله أبداً .

وفي ظهور عجزهم دليل على عجز كل من يأتي بعدهم ، لأن أولئك هم أفصح العرب وأقواهم بلاغة ، وأشدهم شكيمة على معارضة القرآن

والإتيان بمثله ، فهذا كله دليل على أن هذا القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أيضاً عاجز عنه لأن لسانه صلى الله عليه وآله وسلم هو لسانهم ، ومادام الأمر كذلك وقد جاء صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن المعجز _ وجب القطع بأنه كلام الله تعالى ، نازل من عند الله تعالى ، على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يحتمل الأمر غير ذلك قطعاً .

رابعاً _ لقد اشتمل القرآن الكريم على علوم جمة كبيرة القدر ، عظيمة الشأن يعجز الإنسان عن استقصائها كما وصفه الله تعالى بقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) ، فكل سورة كتاب ، بل كل علم جاء به القرآن الكريم يملأ كتباً قيمة .

فمن ذلك علم التوحيد والعقائد القائم على البراهين والأدلة القاطعة ، وعلم العبادات وأنواعها ووجوهها وأقسامها ، وعلم المعاملات المالية وبيان نافعها من ضارها ، وعلم الأحوال الشخصية والمعاشرات الزوجية وأحكام الأسرة ، وبيان الحقوق بينهم ، وعلم المواريث والنفقات ، وعلم الأحكام ، وبيان الحلال والحرام .

وعلم النظر والاستدلال على وجه لا يتجاوز عنه ولا زيادة عليه ، بحيث يقف العقل أمامه مستسلماً خاضعاً ، وإن الحكماء والنظار مهما أمعنوا النظر وبالغوا وصنفوا وقدموا وأخرجوا فإن ما يصلون إليه من صواب الاحتجاج والبرهان الصادق لا بد وأنه راجع إلى القرآن الكريم ، وعنه يؤخذ ومنه يصدر .

كما اشتمل على علم الآداب ومكارم الأخلاق والشمائل المحمودة .

كما اشتمل على علم المواعظ والتذكير ، وعلم الأمثال والقصص ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

كما اشتمل على الإخبارات عن الأمور الغيبية الماضية والآتية .

كما اشتمل على الإخبارات عن العوالم الكونية العلوية والسفلية ، الجسمية والروحية ، والعنصرية والروحانية ، والغيبية والشهودية ، إلى ما وراء ذلك من علوم وعلوم .

ولا شك أن هذه العلوم بهذا الشكل الكافي الوافي _ لا يتفق لأحد من الناس أن يأتي به من تلقاء نفسه بنصوص فيها الإيجاز والإعجاز، بلا إخلال ولا إملال ، ويجمع ذلك في كتاب قدره كقدره ، وجملته كجملته .

فإن ذلك ليس من قدرة المخلوق ، وإنما هو كلام الله تعالى رب العالمين ، أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، فلو إن إنساناً كلف أن يتكلم عن بعض تلك العلوم التي جاء بها القرآن الكريم لاحتاج إلى مصنفات ضخمة وأجزاء متعددة .

خامساً _ لو كان هذا من كلامه صلى الله عليه سلم لأجاب الذين اقترحوا عليه أن يبدله أو يأتي بغير ما أتاهم به _ لعلهم يسلمون ، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على هدايتهم كل الحرص بأي وجه من وجوه الحق ، وإلى هذا الدليل ينبه الله تعالى العقلاء فيقول سبحانه : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي) الآية .

ويقول سبحانه : (وإذا لم تأتيهم بآية _ أي : اقترحوها _ قالوا : لولا اجتبيتها) _ أي : هلا اخترتها واختلقتها (قل : إنما اتبع ما يوحى إلي هذا

بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

سادساً _ لو كان هذا القرآن الكريم من تلقاء نفسه صلى الله عليه وسلم لأجاب الذين سألوه عن مهمات من الأحكام التشريعية ، والأحكام التكوينية ، دون أن يتوقف عن جوابهم ينتظر وحي الله تعالى إليه بالجواب _ ثم بعد ذلك ينزل القرآن الكريم فيذكر السؤال والجواب ، وربما استعجل النبي صلى الله عليه وسلم الجواب فلم يعجل له بل تمضي مدة ثم ينزل ، فهذا التوقف والانتظار ، وهذا الأسلوب النازل بالسؤال والجواب ، دليل صريح على أنه صلى الله عليه وسلم ليس له تدخل في نظم هذا القرآن ، ولا في وضع أساليبه ، وليس من كلامه صلى الله عليه وسلم إنما هو كلام رب العالمين .

فمن الأسئلة عن الأمور التكوينية ونزول الجواب بها ، سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين .

قال تعالى : (ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

وقال تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) الآيات .

وقال تعالى : (ويسألونك عن ذي القرنين قل : سأتلو عليكم منه ذكراً) الآيات .

ومن الأسئلة عن الأحكام الشرعية قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل : هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) الآية .

وقوله تعالى : (ويسألونك عن اليتامى قل : إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم) الآية .

ونحو ذلك من الآيات الكريمة التي جاء فيها الجواب عما سألوه صلى الله عليه وسلم .

سابعاً _ لو كان هذا القرآن من تلقاء نفسه صلى الله عليه وسلم ، لكان عرضه على الناس وإبلاغه لهم يأتي على أسلوب واحد ، مع أنه تارة يبلغ ما أمر بتبليغه من الآيات القرآنية دون أن يذكر صيغة الأمر بالتبليغ ، وتارة يذكر صيغة أمره سبحانه النازل عليه بالتبليغ فيقول في بعض الآيات : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) ، (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

ويقول في بعضها : (قل : يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) .

(قل : إنما أتبع ما يوحى إلي من أمر ربي) ، أي : ولست بمختلق لها ولا مخترع لها .

و (قل هو الله أحد) و (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية .

ولذلك وصفه الله تعالى فقال : (هذا بصائر للناس) أي : هذا القرآن الكريم فيه دلائل تبصركم وجود الحق ، (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) أي لقوم يذعنون للحق ويصدقون به إذا بدا لهم ، واتضح لهم دليله ، وأما من جحد الحق بعد ما ظهر له وعاند ، فإن العناد لا ينفعه الجدل ، بل الجلاد _ ومأواه جهنم وبئس المهاد .

ثامناً _ إن كل عاقل إذا قارن بين القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى

وبين كلامه صلى الله عليه وسلم في أحاديثه وخطبه ومواعظه وغير ذلك ، يرى بينهما فارقاً جلياً ، وذلك أن كلام الله تعالى تتجلى فيه سطوة الربوبية وسلطنة الألوهية ، فله الهيمنة على الأرواح وعلى القلوب والعقول والنفوس ، هيمنة رب على مربوب ، وتعالي خالق على مخلوق ، يتجلى فيه سبحانه بعزته وكبريائه ، فينادي نداء رب لعباده فيقول : (يا عباد فاتقون) ، ويخاطب عباده بالتعالي والعظمة فيقول: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ، (يا أيها الناس اتقوا ربكم) ، ويقول : (إنني أن الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري)،ويقول:(إنني أنا الله رب العالمين) . ويمجد فيه نفسه ، ويعظم نفسه فيقول : (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

ويبين لعباده عظمته وقدرته وقوة سلطانه ونفوذ إرادته ، وأنه الإله الذي يَغلب ولا يُغلب ، ويَقهر ولا يُقهر فيقول : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

ويقول سبحانه : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) .

فيتجلى في هذه الآيات الكريمة ، عظمة مقام الربوبية ، وسلطان مقام الألوهية ، ويعلم العاقل قطعاً أن هذا ليس كلام بشر ، بل هو كلام رب العالمين ، كما جاء ذلك عن من سمع هذه الآيات الكريمة : (وقيل يا

أرض ابلعي ماءك) الآيات ، ويروى أن ابن المقفع وكان بليغاً فصيحاً سمع هذه الآية يقرؤها صبي في الكتاب فقال : أشهد أن هذا الكلام لا يعارض أبداً ، وليس هو من كلام البشر .

وهكذا القرآن الكريم جاء مفتتحاً كثيراً من السور بفواتح حرفية لم يعهد ذلك في فواتح أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، فافتتح القرآن ببعض السور بحرف : (ن) و (ص) و (ق) ، وبعضها بحرفين : (حم) و بعضها بثلاثة حروف : (آلم) ، وبعضها بأربعة : (آلمص) ، وبعضها بخمسة : (كهيعص) ، والكلام على الحروف التي افتتحت بها بعض السور القرآنية سوف يأتي إن شاء الله تعالى .

القرآن الكريم

يرد على من زعم أن النبي صلى الله عليه

وسلم أخذ هذا القرآن من الكتب السابقة

لقد جاء القرآن الكريم بأدلة قاطعة ، ترد على من زعم أن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أخذ هذا القرآن الكريم من الكتب السماوية السابقة ، وأبطل ذلك من وجوه متعددة :

أولاً _إن القرآن الكريم رد على من زعم ذلك ، بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النبي الأمي ، وأميته معروفة عند قوم العرب الذين تربى بينهم ونشأ فيهم ، فهي _ أي : أميته مجمع عليها عند قوم العرب كلهم ، كما هي مجمع عليها عند أهل الكتاب ، ومن ثم رد الله تعالى تلك المزاعم الباطلة بما هو معروف ومجمع عليه عند العرب الأميين وعند أهل الكتاب .

أما دليل أنه معروف عند جميع العرب : فقال سبحانه : (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

ففي هذا حجة على جميع العرب الأميين بأن قضية محمد صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله حقاً ، أوحى الله تعالى إليه ، وعلمه ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، ليس ذلك من نفسه ، ولا تعلم من غيره ، ولم يأخذ من كتاب قبله ، لأنه أمي باعترافهم .

وأما أنه معلوم أميته عند أهل الكتاب ، فقد قال سبحانه في إجماع أهل الكتاب : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ، قل : يا أيها الناس _ أي : جميعكم : عربكم وعجمكم _ إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة : ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ وليس غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة

العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً)) .

إذاً كيف يتصور عقلاً أن بهذا القرآن الكريم من الكتب قبله ، وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ؟ !!

إذاً ما هو إلا رسول الله ، تولى الله تعالى تعليمه ، فأوحى إليه وعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنزل الله عليه الكتاب والحكمة (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

فأميته صلى الله عليه وسلم هي حجة على صدق نبوته ، وحقيقة رسالته ، ولذلك نبه الله تعالى إلى هذه الحجة الباهرة الظاهرة فقال : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) .

ثانياً _ رد القرآن على من زعم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم جاء به من كتب قبله أو من عالم عبراني فقال : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فكيف يؤخذ هذا القرآن العربي المبين عن أعجمي لا يكاد يبين .

روى ابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في الشعب عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) الآية قال مجاهد : قال بعض كفار قريش : إنما يعلم محمداً عبد لابن الحضرمي وهو صاحب كتب ، أي : كما جاء في رواية السدي : كان نصرانياً ، وكان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان أعجمياً يتكلم بالرومية ، فقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين).

ثالثاً _ لو فرض المستحيل وأنه صلى الله عليه وسلم جاء بهذا القرآن الكريم من الكتب السابقة فكيف استطاع أن يسبكها بصفة الإعجاز التي تحدى بها جميع الفصحاء والبلغاء ، وكلهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله : حديثاً ، أو سورة ، أو سوراً .

فإعجاز القرآن الكريم للإنس والجن دليل قاطع على أنه صلى الله عليه وسلم هو وغيره عاجزون عن أن يأتوا بمثله .

إذاً القرآن الكريم هو كلام الله تعالى حقاً أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسوله حقاً ، بصفة الإعجاز ، ليكون أكبر معجزة تشهد العالم المكلف كله أن محمداً رسول الله حقاً ، لا يحتمل أمره غير ذلك ، وأن هذا القرآن هو كلام الله حقاً لا يحتمل غير ذلك أبداً ، وأن الله تعالى هو حق واجب الوجود ، فإن هذا كلامه ، فكيف تنكر وجوده ؟ فآيات القرآن ، وآيات الأكوان ، كلها أدلة قاطعة وشواهد ساطعة على أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

رابعاً _ إن كل ذي عقل وروية إذا تفكر في أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومجيئه بهذا القرآن العظيم يتلوه على الناس _ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم ليس له تدخل في صنع هذا القرآن وصياغته ، وليس هو من معلوماته ومكتسباته ، ولا هو من جمعه وتصنيفاته ،وليس هو من جملة كلامه _ وإنما هو كلام الله تعالى المعجز ، أنزله عليه بعد تمام أربعين سنة ، وعلمه قراءته ، وأمره أن يقرأه على الناس كما علمه الله تعالى .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم بقي أربعين سنة قبل أن ينبأ وينزل عليه الوحي بالقرآن لم يأتي قومه بسورة واحدة ، ولا بأية واحدة أصلاً بل هو

صلى الله عليه وسلم معروف بأنه أمي لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يتردد إلى أحد يتعلم منه ذلك .

فلما تم له أربعون سنة ونبأه الله تعالى وجاءه جبريل الأمين عليه السلام وضمه إليه ثلاث مرات يقول له : (إقرأ) فيقول صلى الله عليه وسلم : (ما أنا بقارئ) _ أي : لست بقارئ لأنني أمي لم أتعلم القراءة . ثم يقول له جبريل عليه السلام : (إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

فألقى ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يصير قارئاً عالماً بما أوحاه الله تعالى إليه ويحقق الله تعالى قوله ووعده حيث يقول : (سنقرئك فلا تنسى) ، وقوله تعالى : (إن علينا جمعه وقرآنه) أي : علينا جمعه في صدرك محفوظاً ، وقوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل : رب زدني علماً) .

وأخذ صلى الله عليه وسلم يبلغ ما أنزل الله تعالى عليه، ويتلو على الناس آيات الله تعالى ، ويقرأ عليهم القرآن على وجه خاص ، وأسلوب لم يكن معروفاً من قبل في أدائه ، وترتيله ، ومقاطعه ، ووقوفه .

إذاً القضية هي أن القرآن نزل من عند الله تعالى ، وبقوة من الله تعالى ، وإلى هذه الحجة الباهرة يرشدنا الله تعالى في قوله سبحانه ملقناً لرسوله صلى الله عليه وسلم الحجة المفحمة للخصوم : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون).

خامساً : إن هذا القرآن جاء بمناهج تشريعية ، وأحكام تكليفية ، تختلف مع ما جاءت به الكتب السماوية السابقة في مناهج شرعها وأحكامها كما وكيفاً

، ومقداراً وأوقاتاً ، وتختلف معها في كثير من الشروط والقيود ، وتنسخ كثيراً من أحكام الشرائع السابقة .

فكيفية الصلوات التي جاء بها القرآن الكريم تختلف عن كيفياتها السابقة ، ومقاديرها تخالف مقادير تلك وأوقاتها ، وهكذا الزكاة والصيام ، وهكذا في كثير من الأوامر والمناهي ...

وإلى هذا يرشد الله تعالى العقلاء ويبين لهم أن الشرائع الإلهية جاءت بالمصالح البشرية وسعادتهم ، فهي تختلف باختلاف الأمم والأجيال قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يدي من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) الآية .

فجاءت مناهج التشريع الإلهي أنظمة محكمة من لدن حكيم عليهم خبير ، كافية وافية بما فيه صلاح أمور العباد والبلاد ، وسعادة كل أمة حسب ما يصلح أمورها وشؤونها المتناسب مع زمانها ، ثم ختم الله تعالى الشرائع بهذه الشريعة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، الجامعة لجميع ما فيه مصالح العباد والبلاد ، وجميع ما يعود عليهم بالخير ، ويباعدهم من الشر ، ويرفعهم إلى قمة السعادة ، ويحفظهم من التردي في حضيض الشقاوة ، ألا وهي الشريعة المحمدية الصالحة المصلحة لكل زمان ومكان وكل قرن وجيل على مختلف طبقاتهم وألوانهم ، وعلى مختلف عصورهم وأماكنهم ، فإنها شريعة واسعة سمحة ، جلية واضحة ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

فلو أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أخذ هذا القرآن عن الكتب قبله

لجاء على سنن الكتب قبله ولا نتهج منهاجهم في الشرائع والأحكام ونحوها ، وليس الأمر كذلك بل جاء بشريعة واسعة الأحكام ، تتسع لجميع الأنام ، على مدى الأزمنة والأيام إلى يوم القيامة .

سادساً _ إن هذا القرآن كثيراً ما يخبر عن بعض الوقائع المعروفة عند علماء الكتاب الأولين الذين لا اتصال لهم به ، وهو صلى الله عليه وسلم أمي لم يقرأ كتبهم ، ولم يكن هو حاضراً في زمن وقوعها ، ثم يأتي بها مفصلة مبينة _ إذاً من أين علم هذه المعلومات الثابتة ، والإخبارات عن الوقائع الماضية ؟؟ !!

وإلى هذا يرشدنا الله تعالى في قوله في قصة يوسف بعد ما ذكرها من أولها إلى آخرها مفصلة مبينة من جميع الجوانب : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت ليدهم إذا أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) .

وهكذا سبحانه يخبرنا في القرآن الكريم عن قضية الطوفان الذي أجراها على قوم نوح ، ويذكر ذلك الأمر مفصلاً إلى أن استوت سفينة نوح على الجودي سالمة بأهلها ، ثم يقول سبحانه من باب الاحتجاج على من يزعم أن هذا القرآن الكريم هو من تلقاء نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سبحانه : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أي : لا علم لك ولا لقومك بذلك حتى علمك الله تعالى ، فأوحى إليك هذا القرآن وأخبرك فيه عما أخبرك به من الأمور العظام ، والقضايا الجسام ، فمن زعم أنك جئت به من عندك واصطنعته فهو جاحد معاند (فاصبر) أي : على ما يقولون (إن العاقبة للمتقين) .

ويخبر سبحانه عن قصة مريم وما جرى حولها في التنازع على كفالتها ثم

يقول سبحانه : (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) .

فلا شك في أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان موجوداً وقتئذ بيم بني إسرائيل حين اختصموا في كفالة السيدة مريم ونازعوا في ذلك رسول الله زكريا على نبينا وعليه الصلاة والسلام _ فهذا أمر لا يتردد فيه عاقل ، ولكن المقصود في هذا النفي عين الإثبات بالدليل القاطع لدى كل عاقل ، على أن علمه صلى الله عليه وسلم بتلك الوقائع إنما كان من باب الوحي الإلهي إليه صلى الله عليه وسلم ، لا من طريق مشاهدة الأمور ، فإنه لم يحضرها ، ولا من طريق الدراسة لكتب الأولين فهو أمي صلى الله عليه وسلم لم يكتب ، ولم يقرأ ، ولم يتلقى عن معلم ، إذاً ما هو إلا أنه رسول الله ، أوحى الله تعالى إليه هذا القرآن الكريم الذي هو كلامه سبحانه ، وأخبره عما هنالك .

سابعاً _ لقد جاء القرآن الكريم بمبادئ إصلاحية هامة ، ومواضيع علمية سامية ، لم تأت في الكتب السابقة من قضايا تشريعية ، ومن قضايا تكوينية ، ومن إخبارات غيبية ، ومن حجج وبراهين عقلية ، يعلم ذلك كل عاقل ألم بعض الإلمام بالكتب السابقة _ إذاً فكيف يمكن أن يأخذ صلى الله عليه وسلم هذا القرآن عن الكتب السماوية السابقة وغيره .

القرآن الكريم

يثبت بالأدلة كفالة رب العزة بحفظ هذا القرآن

في جميع تنزلاته ومن جميع جوانبه وحيثياته

وذلك لأن القرآن الكريم هو أكبر معجزة لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله

وسلم تثبت أنه رسول اله إلى العالمين .

إن من الواجب على العاقل أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله تعالى حفظ القرآن المجيد حفظاً محيطاً بجميع جوانبه في جميع تنزلاته على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي جميع أحوال تلاواته صلى الله عليه وسلم على الأمة ، وفي تبليغه لهم ، وأن الله تعالى قد أبقاه من جميع حيثياته محفوظاً من التحريف والزيادة والنقص ، مصوناً من التلاعب فيه إلى يوم الدين .

وهذا الحفظ الإلهي بأنواعه ثابت بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية ، بحيث لا تدع شبهة لمشتبه ، ولا ريبة لمرتاب كما سأبين ذلك إن شاء الله مفصلاً.

فلقد حفظ الله تعالى القرآن المجيد في اللوح المحفوظ ، وحفظه في نزوله ووحيه إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وجمعه له في صدره الشريف صلى الله عليه وسلم على وجه محفوظ لا يذهب عنه شيء ، ولا يتفلت منه كلمة ، وحفظه في طريق تبليغه صلى الله عليه وسلم وتلاوته على الأمة ، حتى أداه وبلغه للأمة كاملاً سالماً من تلاعب شياطين الإنس والجن ، ومن مشاغاباتهم ، وقد تحملته الأمة وتلقته عنه صلى الله عليه وآله وسلم كاملاً سالماً كما تلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله الحكيم العليم قال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) .

وهكذا حفظ الله تعالى القرآن المجيد بعد تبليغه صلى الله عليه وسلم للأمة ، وأحاط بصيانته إلى يوم الدين ، وسوف تمر بك الأدلة على كل نوع من أنواع الحفظ المتقدمة إن شاء الله تعالى .

حفظ الله تعالى القرآن المجيد في اللوح المحفوظ

قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) .

فقد وصف الله تعالى اللوح الحاوي المشتمل على القرآن المجيد وهو لوح كتابته الأولى وصفه بأنه (لوح محفوظ) وفي هذا تنبيه إلى أن ما حواه هذا اللوح وكتب فيه فهو محفوظ من باب أولى وأحق ، فإن المراد من حفظ صدفة الجواهر _ هو حفظ ما في الصدفة من الجواهر ، وإن حفظ اللوح يراد منه حفظ ما لاح وكتب ألا وهو القرآن المجيد .

وقال الله تعالى : (حمˆ والكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) ، وفي هذه الآية الكريمة يخبر سبحانه عن عظيم شأن هذا القرآن الكريم في الملأ الأعلى ، وعن علو مقامه ورفعة قدره ، وأن هفي مقام الإجلال والإعظام والإكبار ألا وهو مقام لدينا ، (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) فاعقل وتدبر .

وفي هذا دليل على حفظ الله تعالى لهذا القرآن الكريم في جميع طرق تنزلاته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى حفظه بعد تنزلاته عليه صلى الله عليه وسلم ، وذلك بحفظ نصوص كلمات هذا القرآن وحروفه من التلاعب والتبديل ، والزيادة والنقص .

ووجه الدليل على ذلك هو أن الله تعالى الحكيم العليم ، الذي حفظ القرآن هذا المجيد في الملأ الأعلى ، هو منزه بمقتضى حكمته أن يتخلى عن حفظ القرآن في طريق نزوله ، وبعد نزوله إلى هذا العالم الأدنى ، ومنزه عن أن يعرضه للضياع والتلاعب فيه بزيادة أو نقص ، فكفالته سبحانه بحفظ لوحه وحفظ كلمات هذا القرآن المجيد ثمة في الملأ الأعلى : دليل على كفالته بحفظه له في الملأ الأدنى ، كما أعلن هذه الكفالة بقوله سبحانه : (

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وسيتضح ذلك أن شاء الله تعالى فيما يأتي .

حفظ الله تعالى هذا القرآن الكريم

في طريق نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) .

وقال تعالى مخبراً عن الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً أنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) _ أي : كان ذلك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وقبل بدء نزول القرآن عليه _ (فمن يستمع الآن)_ أي : بعد ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن _ (يجد له شهاباً رصدا وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) .

فقد حفظ الله تعالى طريق نزول القرآن من تلاعب الشياطين ومشاغبتهم ، فملأ السماء حرساً شديداً من الملائكة الكرام الأقوياء العظماء ، وشهباً كبيرة كثيرة محرقة .

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

فقال : _ يعني إبليس كما في رواية أحمد _ ما حال بينكم وبين خبر

السماء إلا ما حدث _ أي لا بد أن يكون حدث أمر عظيم حتى حيل بينكم وبين خبر السماء _ فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ؟ فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء .

فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة _ موضع قرب مكة _ وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن تسمعوا له .

فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء .

فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا : (يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) ، وأنزل الله تعالى على نبيه : (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) .

فأنزل الله تعالى هذا القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم محفوظاً مصوناً ، والنازل به الروح الأمين ، ومعه جمع حافل من الملائكة يحفظونه ويحرسونه .

وقال سبحانه في آخر سورة الجن : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) .

فينزل جبريل عليه السلام بالوحي ، ومعه ملائكة يحرسون ما نزل به ويحيطون من بين الرسول ومن خلفه رصداً ، كما ورد ذلك عن سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما .

وقد رواه الإمام أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون

ملكاً)) . الحديث .

وقد جاء من عدة طرق رواه الطبراني والحاكم وغيرهما مرفوعاً : ((أن سورة الإنعام لما نزلت شيعها سبعون ألف من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد)) .

وفي رواية الحاكم : ((شيعها من الملائكة ما سد الأفق)) .

حفظ الله تعالى القرآن الكريم

في قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم وجمعه في صدره الشريف صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : (إن علينا جمعه وقرآنه) .

روى البخاري وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) .

قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل جبريل بالوحي يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يجرك لسانه وشفتيه ، فيشتد ذلك عليه صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى الآية : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

قال : علينا أن نجمعه في صدرك ، (وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) فإذا أنزلناه فاستمع ، (ثم إن علينا بيانه) علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى) .

وفي رواية البخاري في كتاب الوحي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) قال : (كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك به شفتيه) ـ فقال ابن عباس فإنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما.

وقال سعيد بن جبير ، وأنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه

فأنزل الله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

قال ابن عباس: (جمعه لك في صدرك وتقرأه ، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) ـ فاستمع له وانصت) الحديث .

ومعنى ذلك كما جاء عن الحسن وغيره كان النبي صلى الله عليه وسلم في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن سارع جبريل القراءة ـ أي ، أسرع للقراءة قبل أن ينتهي جبريل ـ ولم يصبر حتى يتمها مسارعة إلى الحفظ لئلا يتفلت منه شيء ، فلما نزلت الضمانة من الله تعالى بحفظه عليه لم يتسارع لذلك.

وروى الطبراني من طريق الشعبي : (كان صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه ـ القرآن ـ عجل يتكلم به من حبه إياه) . ا هـ

أي : فكان صلى الله عليه وسلم يتكلم بما يلقى إليه أولاً فأولاً من شدة حبه إياه ، فأمر الله تعالى أن يتأنى إلى أن ينقضي النزول .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي رجاء عن الحسن : (كان صلى الله عليه وسلم يحرك به لسانه يتذكره ـ أي : يستحفظه ويتحفظ به ـ ، فقيل : إنا سنحفظه عليك) . ا هـ أي : بدون أن تجهد نفسك بحفظه .

نعم إن السبب الأول في مسارعته للقراءة هو شدة حبه صلى الله عليه وسلم للقرآن النازل عليه ، وتعشقه به ، وهذا مما يحمله صلى الله عليه وسلم والتحفظ به والمسارعة لقراءته مخافة أن يتفلت منه شيء ، فإن

المحب الصادق حريص كل الحرص على محبوبه .

فلا منافاة بين ما جاء عن الحسن وعن الشعبي .

فالله تعالى تكفل لرسوله صلى الله عليه وسلم فأوجب على نفسه سبحانه أن يحفظ عليه هذا القرآن في صدره صلى الله عليه وسلم فقال : (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) فهو سبحانه الكفيل الضامن لحفظه عليه ، وبيانه له وكفى بالله كفيلاً وحفيظاً .

وقال تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً) والمعنى : لا تتعب نفسك بتلاوة القرآن الذي نوحيه إليك متعجلاً بذلك قبل أن يقضى إليك وحيه متحفظاً به ، فالله تعالى الذي يوحيه إليك هو يعلمك إياه نصاً وأداءً ، ومعنىً وبياناً ، ويزيدك علوماً وعلوماً (وقل رب زدني علماً) .

حفظ الله تعالى هذا القرآن الكريم

في حال تبليغه صلى الله عليه وسلم وتلاوته على العباد

سالماً من مداخلة فيه أو مشاغبة عليه

قال الله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) .

أي ليعلم كل عاقل يتأتى منه العلم ـ بدليل قراءة (ليعلم)[٣] أي :

أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة سالمة ، كما قال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) .

---

[٣] على صيغة ما لم يسم فاعله ـ انظر التفاسير

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن فيها يقول تعالى : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

فهو سبحانه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، فتحيط الملائكة بالرسول من بين يديه ومن خلفه رصداً ، وبذلك تحفظ ما ينزله الله تعالى إلى الرسول من الوحي حتى يبلغ رسالة ربه إلى أمته ، محفوظة مصونة من أي دخيل أو ملاعبة شيطان ، ويبلغ كل رسول ما أوحاه الله تعالى إليه كاملاً موفوراً .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : (إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) .

قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث إليه الملك بالوحي ، بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالملك) .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : (ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا ومعه أربعة من الملائكة يحفظونه) ا هـ كما في تفسير الآلوسي وغيره .

فالله تعالى حفظ هذا القرآن وصانه من تلاعب الشياطين في جميع مراحل تنزلاته وتبليغه وإيصاله للعباد .

وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلوا القرآن على الناس ليسمعوه بآذانهم ، وليعقلوا ما فيه بقلوبهم ، وليوصل روح القرآن إلى روح الإنسان ، ويوصل النور القرآني إلى قلوبهم وعقولهم ، فيتجلى لهم نور الحق ، فيعرفون الحق ، ثم بعد ذلك فمن الناس من ينصف ويعترف فيعمل بموجب ما عرف من الحق وعقل فيهتدي ،ومنهم من يتكبر عن الاعتراف

بالحق فيعاند ويخالف فيضل .

قال الله تعالى : (قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن) . أي : أمرني الله تعالى أن أتلو القرآن على العباد ، (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) .

وفي هذا طريق دعوته صلى الله عليه وسلم للعباد : أنه يتلوا عليهم آيات الله تعالى فيسمعوا كلام الله تعالى الذي فيه روح الأرواح ، ونور للعقول والقلوب .

قال الله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) الآية .

وهذا يقتضي أن يسمعهم كلام الله تعالى مصوناً محفوظاً من كل دخيل ومشاغبة ، وسالماً من كل شائعة وملاعبة ، لتحصل به الهداية ، وتقوم به الحجة ، وتؤثر به الدعوة .

فلو جاز أن تتلاعب فيه الشياطين حين يبلغه صلى الله عليه وسلم للعباد ويتلوه عليهم ـ لما حصل المقصود من التلاوة عليهم ، بل لازداد المسيء الذي يدعى للإيمان سوءاً ، ويزداد الضال الذي يدعى للهداية شبهة وضلالة ، وذلك بسبب ما يلقيه الشيطان ، وبما يعبث به .

وكيف تتصور أن يشاغب فيه الشيطان حين يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يلقي الشيطان في تلاوته صلى الله عليه وسلم والحال قد تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيطان قبل أن يتلوه ويقرأه كما أمره الله تعالى بقوله : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم

إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

وإذا كانت تعوذه صلى الله عليه وسلم لا يمنع الشياطين ويطردهم ، فمن الذي يطردهم تعوذه ـ بل وما فائدة الأمر بالتعوذ عند القراءة إذا كان التعوذ لا يعيذ من الشياطين .

وكيف تتصور لدى العقول أن يمكن الله تعالى الشيطان من التدخل في تلاوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يمنعه من الإلقاء فيها ، في حين أن الله حفظ هذا القرآن الكريم في اللوح المحفوظ في الملأ الأعلى ، وفي السماوات ، ثم حفظه في نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفظه في مستقره من صدره الشريف صلى الله عليه وسلم .

فهل يصح عقلاً أن يتخلى سبحانه عن حفظه في الآونة الأخيرة المقصودة المهمة وهي إيصاله إلى الناس وتبليغهم إياه ليهديهم به ويقيم به الحجة عليهم ؟

قال تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) .

فلو فرض أنه سبحانه تخلى عن حفظه حين تبليغه للناس إذاً لضاعت حكمة حفظه في المراحل الأولى .

وكيف تتصور أن يتخلى سبحانه عن حفظه حال تبليغه صلى الله عليه وسلم وتلاوته على الناس ، وقد بين الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم أن من أهم مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم ـ تلاوة القرآن على العباد ودعوتهم به ، ليبلغ الرسالة ويقيم عليهم الحجة .

قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما

بلغت رسالته) الآية .

وقال تعالى مخبراً عن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة)الآية .

وقال تعالى: (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

وقال تعالى : (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) الآية .

وقال تعالى : (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) الآية .

وقال تعالى : (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) الآية .

ومن هذه الوجوه التي ذكرتها في بيان حفظ الله تعالى لهذا القرآن ، يعلم العاقل علم اليقين بطلان قصة الغرانيق ، ويعلم أنها كذب مفترى كما أوضح ذلك إن شاء الله تعالى فيما يلي :

بيان قصة الغرانيق الباطلة

البحث في هذه القصة يدور على أمور ثلاثة :

الأول ـ إيراد القصة المفتراة

الثاني ـ ذكر وجوه متعددة من الأدلة القاطعة تبين فساد هذه القصة .

الثالث ـ بيان أن قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الآية الكريمة ـ ليس فيه دلالة على وقوع القصة ، ثم ذكر المعنى الصحيح المستقيم الذي تدل عليه الآية

الكريمة مع الأدلة إن شاء الله تعالى .

إيراد القصة الباطلة :

ذكر بعض المفسرين نقلاً عن ابن حاتم وابن جرير فيما يرويانه عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة : (والنجم إذا هوى) فلما بلغ هذا الموضع(أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال : ـ سعيد ـ فالقى الشيطان على لسانه صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى .

قالوا : ـ أي المشركون ـ ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم .

فسجد صلى الله عليه وسلم وسجدوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : (وما أرسلنا من قبلك من رسولاً ولا نبي إلا إذ تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) .

والغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طير أبيض معروف .

فهذه قصة الغرانيق ، هي قصة مكذوبة ، ليس لها سند يعتمد عليه كما قال الحافظ ابن كثير ، طرقها كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم . ا هـ

وقال الحافظ البيهقي : هي غير ثابتة من جهة النقل .

وذكر عن الإمام ابن خزيمة أن هذه القصة من وضع الزنادقة .

وأبطلها ابن العربي المالكي ، والإمام الفخر الرازي وجماعات كثيرة من أهل التفسير والحديث .

قال عبد الله : وسأذكر مستعيناً بالله تعالى وجوهاً من الأدلة المنقولة والمعقولة الدالة قطعاً على بطلان قصة الغرانيق إن شاء الله تعالى ، مبتغياً

بذلك رضا الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) .

أولاً ـ هذه القصة مردودة من ناحية علم مصطلح الحديث لأسباب متعددة:

السبب الأول : في رد هذه القصة هو أن أسانيدها كلها مرسلة وفيها أيضاً انقطاع .

وقد ذكر البزار أنه لا يعرف لهذه القصة التي فيها الغرانيق سند متصل إلا من طريق واحد ، تفرد به أمية بن خالد ، عن شعبة ، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ، مع الشك الذي وقع في وصله .

فقد روى البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ـ الشك في الحديث كما جاء في شرح الشفاء ـ ثم ساق حديث القصة المذكورة ، فلم ترد قصة الغرانيق متصلة إلا من هذا الوجه الذي شك رواية فيه ، ومعلوم أن ما كان سنده كذلك لا يحتج به لظهور ضعفه ، ولذا قال الحافظ ابن كثير : كما تقدم إنه لم يرها مسندة من وجه صحيح .

السبب الثاني : هو اضطراب المتن في قصة الغرانيق .

ففي رواية أن ذلك جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم ، كما هو رواية أبي حاتم المتقدمة .

وجاء في رواية أن الشيطان قال ذلك ، كما هو في رواية لا بن أبي حاتم عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه

من أذاهم ، فكان يتمنى هداهم ، فلما أنزل عليه سورة النجم قال : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) . ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : ـ الشيطان ـ وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ،وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك في مكة ، قال : ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين إلخ[٤].

وتارة تروى قصة الغرانيق ، أنها ألقاها الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة كما جاء ذلك في رواية قتادة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام إذ نعس ، فألقى الشيطان على لسانه : وإن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلى فحفظها المشركون . إلخ .

وتارة تروى قصة الغرانيق أنها كانت خارج الصلاة وهو يقظان صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك في ناد من أندية قريش كثير أهله : كما في رواية محمد بن كعب القرظي مرسلاً رواها ابن جرير .

وروى ابن جرير أيضاً عن أبي العالية قال : نزلت سورة النجم بمكة فقالت قريش : يا محمد إنه يجالسك الفقراء والمساكين ، ويأتيك الناس من أقطار الأرض ، فإن ذكرت آلهتنا بخير جالسناك ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة والنجم فلما أتى على هذه الآية : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه : وهي الغرانيق

[٤] انظر تفسير ابن كثير باختصار .

العلى شفاعتهن ترتجى ، فلما فرغ من السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون إلا أبا سعيد بن العاص إلخ .

فانظر في اضطراب هذه القصة المزعومة .

ومرة تروى أنه صلى الله عليه وسلم كان في سنة من النوم وقال ذلك .

فانظر في هذا التناقض في نصوصها والتعارض فيها الذي لا سبيل إلى دفعه .

وما ذلك إلا لأنها كذب وافتراء ، فتلونت وجوهها ، ولو كان حقاً وصدقاً لكان لها وجه واحد ، وإن جاءت من ألف طريق فلا يقع التناقض بين نصوصها ولا التعارض ، وهو مدفوع عن الصحاح لوجوه صحيحة مقبولة معقولة ، كما هو معلوم عند المحدثين .

فاضطراب هذه القصة يردها ، ويدل على كذبها وافترائها بلا شك .

السبب الثالث :أن رواية قصة الغرانيق هي منكرة ، لأنها مخالفة للصحيح المعروف عند المحدثين .

فقد روى البخاري في تفسيره من صحيحه عن الأسود بن زيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (أول سورة أنزلت فيها سجدة : والنجم ، قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف) فليس في هذا الحديث الصحيح شيء من قصة الغرانيق .

بل الرواية الصحيحة عن ابن عباس أيضاً ليس فيها شيء من قصة الغرانيق .

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (سجد النبي

صلى الله عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس) .

فهذه الروايات هي المعروفة الصحيحة المعول عليها ، وأما الروايات التي فيها قصة الغرانيق فباطلة بجميع وجوهها منكرة .

وقد يسأل سائل فيقول : ما السبب الذي حمل المشركين أن يسجدوا مع المسلمين كما في رواية البخاري .

فالجواب : أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم اهتزت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وانبهتت عقولهم ، واعترتهم الهيبة والفزع ، وفي تلك الحالة ينطقون بالحق .. حتى إذا فارقوا مجلسه صلى الله عليه وسلم ورجعوا إلى قومهم نكسوا على رؤوسهم ، وجحدوا ما أيقنوا ، وأنكروا ما عرفوا ، وهنالك شواهد واقعة كثيرة تثبت ذلك :

فهذا الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم قال : والله إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه الحق يعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول البشر .

ثم لما رجع وجاء أبو جهل وأفسد عليه أمره انتكس فراح فكر وقدر ، وقال تعالى : (أنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر) _ مع أنه قبل ذلك قال : وما هو بقول البشر.

وهذا عتبة بن ربيعة لما سمع مع النبي صلى الله عليه وسلم : (فإن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

قال : يا محمد أناشدك الله والرحم إلا كففت عن هذا ، وخرج فزعاً ثم

انتكس .

وهكذا لما سمع المشركون آخر سورة النجم وما فيها من التهديد والوعيد بالعذاب في الدنيا والآخرة ، أخذ ذلك منهم مأخذاً كبيرا ، قال تعالى في آخر سورة النجم : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى) .

فأسمعهم إهلاك الأمم الكافرة قبلهم ، ثم واجههم بالخطاب على وجه شديد فيه التوعد والإرهاب فقال تعالى : (هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا) .

فلما سمعوا ذلك فزعوا أو خافوا ، فما وسعهم إلا أن يسجدوا مع المسلمين ، لأن سلطان الكلام الإلهي ، وما فيه من شدة الوعيد سيطر عليهم ، وأثر في قلوبهم ، فانساقوا للحق ، ثم بعد ذلك راحوا يجحدون وينكرون .

وهناك شواهد كثيرة ربما تمر علينا في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

فلا عجب ولا غرابة من سجود المشركين حين سمعوا تلك الآيات فسجدوا.

وحيث أن الثابت عن ابن عباس هو ما تقدم في رواية البخاري ، فما السبب الحامل على أن نجاوز الصحيح إلى نقل غير صحيح ولا ثابت ، والله تعالى يقول : (ولا تقف ما ليس لك به علم) ، ـ أي : لا تتبع ما ليس له دليل يثبت العلم به .

ثم يحذر سبحانه من خطر ذلك فيقول سبحانه : (إن السمع والبصر

والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) ـ فأي علم جازم تثبته قصة الغرانيق وأي ظن غالب قوي تعطيه هذه القصة ؟ وأسانيدها كلها واهية .

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقبلون حديثاً يبلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمعوه منه حتى يتثبتوا من نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا كان أمراً اعتقادياً ويتعلق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكلامه سبحانه .

فهذا عمر بن الخطاب يتثبت من حديث الاستئذان ثلاثاً والرجوع بعد ذلك ، حين سمعه من أبي موسى الأشعري ويطالبه بمن يشهد له بذلك الحديث، وقد فعل ذلك أبو موسى كما جاء في الصحيحين وغيرهما والحديث معلوم.

فإن هذه القصة ـ قصة الغرانيق ـ ظاهرة الوضع لأن علامات الوضع ظاهرة فيها .

وقد ذكر علماء الحديث أن من علامات وضع الحديث مخالفته للمنقول الصحيح ، ومخالفته للعقل الصحيح ، وهي مخالفة للأصول الثابتة بالكتاب والسنة ، ومعارضة لها كما سيتضح هذا من وجوه متعددة :

الأول ـ إن قصة الغرانيق تتنافى مع سياق الآيات الواردة في أول سورة النجم ، وتتنافى مع لحاقها .

فالله تعالى يقول في أول سورة النجم : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

فهو سبحانه يعلم عباده ويعلن لهم في هذا القرآن الكريم : أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى ، وإنما ينطق عن وحي

يوحيه الله تعالى إليه،فكيف يتصور لدى العقل أن ينطق عن الشيطان ؟؟ !!
بل إذا كان الشيطان لا يمكنه أن يتسلط على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يقاربه ، ولا أن يشاغب عليه ، أو يلبس عليه وفي حالة الغضب التي يلبس فيها الشيطان على غيره صلى الله عليه وسلم ، وربما تسلط عليهم وأجرى على لسانهم ما لا ينبغي شرعاً كما قال صلى الله عليه وسلم : (إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) رواه أبو داوود .

وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي اشتد غضبه : (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب :أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

الحديث كما في الصحيحين وغيرهما .

فالغضب حالة قد تخرج الرجال عن خط الاعتدال لتسلط الشيطان ومقاربته للغضبان .

وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد حفظه الله تعالى من ذلك ، وصوّب كلامه ، وسدد أقواله في جميع أحواله صلى الله عليه وسلم ، فهو ينطق بالحق والصدق في حالة الرضا والغضب ، لا يخرجه الغضب عن كمال الصواب _ إذ ليس للشيطان إليه باب .

روى الإمام أحمد وأبو داوود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا ، قال عبد الله : فأمسكت عن الكتابة _ فذكرت ذلك للنبي الله صلى الله عليه وسلم فأومأ

بإصبعه إلى فيه _ أي فمه الشريف _ فقال صلى الله عليه وسلم : (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)) .

وعند أحمد : (اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق) .

وعند الدرامي : (اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق) .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة : (سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين : ربيعة ومضر)) .

فقال رجل لرسول الله : أوما ربيعة من مضر ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (إنما أقول ما أقول) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لا أقول إلا حقاً) .

فإذا كان الشيطان لا يمكنه أن يقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حالة غضبه ، فكيف يتسلط عليه ويشاغب عليه في حال تلاوته وتبليغه صلى الله عليه وسلم القرآن ، لا سيما وقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم قبل تلاوته عملاً بما علمه الله تعالى بقوله : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون).

فإن صحت قصة الغرانيق _ على فرض المستحيل _ فما معنى هذا الإعلام الإلهي في أول سورة النجم بأن محمد صلى الله عليه وسلم رسوله الكريم (ما ينطق عن الهوى) وإنما هو الوحي من الله تعالى لا غير ، فلا شك أنها قصة باطلة .

كما أن قصة الغرانيق تتنافى صراحة مع لحاق الآيات ، فقد قال تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضِيْزَى إن هي إلا أسماء _ أي : ما أصنامكم التي تسمونها آلهة _ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) .

فذمهم وذم آلهتهم ، وسخف عقولهم ، وسجل عليهم الضلال حيث تركوا طريق الهدى الذي جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم ، وركبوا طريق الضلال الذي تهواه أنفسهم ، فعبدوا حجاراً وسموها آلهة ، وفي هذا ذم صريح واضح للمشركين .

كما أنه ذمهم ووبخهم وسجل عليهم الجهل والجهالة في دعواهم أن الملائكة إناث ، فقال سبحانه : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم بذلك من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) .

فسجل عليهم الجهل والضلال .

فكيف يتصور بعد هذا الذم للمشركين وتسفيه أحلامهم ، أن يكونوا قد مدح أصنامهم بأنها الغرانيق العلى ... إلخ .

أي : فكيف يتصور أن يمدحهم ثم يذمهم ، ويجهلهم ويضللهم ، ويسخف عقولهم ، ثم يسجدون معه رضا عنه لأنه مدح أصنامهم بأنها الغرانيق العلى ؟ !! بل لو حصل ذلك لاعترضوا ولقالوا : كيف تمدحها ثم تذمها بعد ذلك ، وتختم المجلس بذمها .

الثاني ـ يقال لمن جعل قصة الغرانيق سبباً لنزول آية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي : ألقى على لسانه ، أو بين سكتاته يقال له : هذه قصة ألقاها الشيطان عند تلاوة سورة النجم ، فما هي بقية الإلقاءات الشيطانية التي ألقاها في تلاواته صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية تقول : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان) فعلى حسب فهمكم : كل تلاوة صدرت فإن الشيطان يلقي فيها على لسانه صلى الله عليه وسلم ، أو بين سكتاته فما هي تلك الإلقاءات التي ألقاها الشيطان عند تلاوة بقية الآيات ؟؟ كلا لا هذه ولا غيرها .

الثالث ـ إن ذلك مناف للحفظ الإلهي الذي تكفل الله تعالى به أن يحفظ هذا القرآن فإن الله تعالى الذي قال : (إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) قد حفظه في الملأ الأعلى في اللوح المحفوظ ، وحفظه في طرق نزوله على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفظه له تاماً كاملاً لا يذهب عنه شيء ولا ينسى منه شيئاً ـ في صدره صلى الله عليه وسلم حتى يبلغه تاماً سالماً ، فكيف يتصور لدى العقول أن يتخلى سبحانه عن حفظه من تلاعب الشياطين ومداخلاتهم في آخر مرحلة وأدق المواطن ، وهي مرحلة تبليغه للناس ، وتلاوته عليهم ، حتى يحفظوه ويكتبوه ، ويعتقدوا بعقائده ، ويعملوا بأوامره ، وينتهوا عن مناهيه ؛ إلى آخر ما هنالك .

فإذا جاز أن تجرى عليه مشاغبات ومداخلات شيطانية في هذه المرحلة الأخيرة التي هي المقصودة بالذات إذاً يكون قد ضاعت الحكمة في حفظه في المراحل الأولى كلها .

الرابع ـ لقد كان صلى الله عليه وسلم يأمر كتبة الوحي بكتابة القرآن

النازل عليه فور النزول ، ولم يروا أنه راجعهم في تصحيح ما تلاه عليهم بأنه إلقاء من الشيطان ، فلو كان إلقاء الشيطان حال تلاوته صلى الله عليه وسلم جائزاً لقال لمن حوله من الكتبة لا تكتبوا حتى استوضح لكم الحق الرحماني من الباطل الشيطاني ، ولنبههم فيما بعد على الإلقاء الشيطاني ، ليصححوا ما كتبوه ، ولم يرد شيء من ذلك كلا ـ بل كان صلى الله عليه وسلم يتلو على الناس آيات الله تعالى النازلة عليه عقب نزولها للحفظ في الصدور ، ويأمر الكتبة بكتابتها لتحفظ في السطور .

وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لوحي القرآن هو اختارهم لذلك منهم الأربعة الخلفاء رضي الله تعالى عنهم ، ومعاوية ، وأبان بن سعد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وحنظلة بن ربيع ، وغيرهم . . . فكانوا يكتبون القرآن فور نزوله على رسوله صلى الله عليه وسلم بإتقان وإحكام ، واستيعاب كامل ، بحيث لا يضيعون منه حرفاً ولا كلمة .

روى البخاري وغيره عن زيد بن ثابت رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم أملى عليه : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) .

فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علي فقال : (يا رسول الله : والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت ـ وكان أعمى) .

فأنزل الله على رسوله صلى وفخذه صلى الله عليه وسلم على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله تعالى : (غير أولي الضرر) .

أي فكتبها كما جاء في رواية أحمد وأبي داوود : فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ((اكتب : (غير أولي الضرر))) .

قال زيد : (أنزله الله تعالى وحدها فألحقتها بها ، فو الله لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف) .

قال ابن التين : يقال إن جبريل عليه السلام هبط ورجع قبل أن يجف القلم _ أي : قلم زيد . ا هـ

قال في (الدر المنثور) : وأخرج ابن فهر في كتاب فضائل مالك ، وابن عساكر من طريق عبد الله بن رافع قال :

قدم هارون الرشيد المدينة ، فوجهه البرمكي إلى مالك وقال له : احمل الكتاب الذي صنفته _ أي : الموطأ _ حتى أسمعه منك .

فقال مالك للبرمكي : أقرئه السلام وقل له : العالم يزار ولا يزور ، وإن العلم يؤتى إليه ولا يأتي .

فرجع البرمكي إلى هارون الرشيد فبلغه وقال له : إعزم علي حتى يأتيك ، فإذا بمالك قد دخل _ على هارون الرشيد _ وليس معه كتاب وأتاه مسلماً فقال مالك : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يعز هذا العلم ويجله ، فأنت أحرى أن تعز وتجل علم ابن عمك _ أي : حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يزل يعدد عليه من ذلك حتى بكى هارون الرشيد ثم قال مالك :

أخبرنا الزهري عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : (كنت أكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتف (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) وابن أم مكتوم عند

النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله قد أنزل الله في فضل الجهاد ما أنزل ، وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا أدري)) .

قال زيد : وقلمي رطب ما جف حتى غشي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي ثم جلي عنه فقال لي : ((اكتب يا زيد : (غير أولي الضرر)))) .

فيا أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف سنة حتى أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله ؟ . ا هـ

الخامس _ لو جاز وقوع قصة الغرانيق ، لذهبت الثقة من الكاتبين عنه صلى الله علي وسلم الذي يملي عليهم فيكتبونها في الصحف ، بل لذهبت الثقة من المتلقين عنه صلى الله عليه وسلم لأنهم حينئذ يقولون في أنفسهم : لعله أن ينزل بعد ذلك آيات تدل على مداخلة الشياطين فيما كتبناه أو تلقيناه منه صلى الله عليه وسلم .

السادس _ يلزم من وقوع قصة الغرانيق أن للشيطان تسلطاً عليه صلى الله عليه وسلم في أهم الأمور وأكبرها وهي أمور الوحي عن الله تعالى والتبليغ عن الله تعالى ، في حين أنه صلى الله عليه وآله وسلم بالإجماع هو معصوم من الشيطان ومن تسلطه عليه في جميع أموره وأحواله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ولا سيما في أمور الوحي والتبليغ عن الله تعالى .

وإذا كان الشيطان لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فكيف يتسلط على إمام الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء

والصالحين.

قال الله تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) .

وقال تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين أمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

السابع _ كيف يصح أن يتمكن الشيطان من إلقاءه في تلاواته صلى الله عليه وسلم لآيات الله تعالى ، في حين أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو على الناس آيات الله تعالى على وجه متصل مستمر ، وتلاوته صلى الله عليه وسلم على الناس لها أسباب متعددة :

إما من باب الإملاء عليهم ليكتبوا القرآن في صحف كما هو وظيفة الكتبة .

وإما من باب التبليغ لهم يبلغهم ما أنزل الله تعالى عليهم .

وإما من باب تلقينهم وتعليمهم القرآن الكريم ، فإن تلاوة القرآن لا تعرف إلا بالتلقي عنه صلى الله عليه وسلم ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يعلم الصحابة تلاوة الكتاب .

روى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السلمي قال :

حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم :أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه العشر من العلم والعمل ، قالوا : فعلنا العلم والعمل .

وروى محمد ابن نصر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عشراً من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما نزل في هذه من العمل) .

ولم يروا أحد من الصحابة الذين أخذوا عنه القرآن أنه استدرك ما تلاه وقال : هذه من إلقاء الشيطان كلا وحاشاه صلى الله عليه وسلم ، بل كثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يتلو على الناس آيات الله تعالى من باب الدعوة إلى الإيمان والدخول في الإسلام .

وهذه التلاوة قد تكون على جموع كثيرة من المشركين وغيرهم ، وقد تكون على أفراد كما جاء في إسلام ابن مظعون وغيره ، فإنهم أسلموا حين أسمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام الله تعالى كما تقدم مفصلاً في بحث تأثير القرآن الكريم .

فإذا كان المفهوم من آية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) إذا كان يفهم منها أن الشيطان يقلي في تلاوته على لسان ، أو بين سكتاته ؛ إذا كان كذلك فيلزم منه أن جميع تلاواته بأسبابها المتعددة هي في معرض إلقاء الشيطان ، وأنه ألقى فيها الشيطان ، لأن الآية على هذا الفهم تقول : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي : كلما قرأ ألقى الشيطان كلاماً من عنده على لسانه ، أو بين سكتاته ، إذاً كم تلاوة حصلت ؟ ! ، وكم إلقاء شيطاني حصل ؟! نعوذ بالله من هذا الفهم الباطل .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو على الناس آيات الله تعالى من باب الموعظة والتذكير لهم ، حتى بلغ الأمر ببعض الصحابة رضي الله عنهم أن حفظوا القرآن الكريم من كثرة سماعهم القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (حفظت سبعين سورة من فم رسول الله

صلى الله عليه وسلم) .

ففي هذه التلاوات الكريمة التي تلاها صلى الله عليه وسلم واستماع الصحابة إليه ، وتلقيهم عنه ، وكتاباتهم عنه لم يرد عن واحد منهم أنه قال : قد صحح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو نبهنا إلى أن بعض الكلمات كانت دخيلة من قبل الشياطين ، أو جرى فيها سهو ، أو نحو ذلك _ كلا لم يقع ذلك أصلاً .

الثامن _ إذا كانت قصة الغرانيق هي سبب نزول قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الآية .

وإذا كان التمني في هذه الآية محمولاً على التلاوة ، وأن الشيطان يلقي في أمنيته أي : تلاوة الرسول والنبي ما يلقيه ، وأن هذه الآية التي نزلت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم _ إذا كان الأمر كذلك فإن الآية تقول : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان) أي : كلما قرأ وتلا ألقى الشيطان ما ألقاه ، فمعنى ذلك أن كل تلاوة صدرت من الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما خلت عن إلقاء شيطاني .

فإن زعمتم أن الشيطان ألقى كلمة الغرانيق العلى ... إلخ في تلاوته صلى الله عليه وسلم أول سورة النجم فما هي بقية الإلقاءات التي ألقاها الشيطان في بقية تلاواته صلى الله عليه وسلم على الناس ؟ ، فإن الذي نقل هذه ينقل تلك الإلقاءات أيضاً ، بل يلزم على ذلك أن ينقل إلقاءات كثيرة عن كثير من الصحابة ، لأن تلاوته صلى الله عليه وسلم كانت على مسمع منهم _ اللهم سبحانك هذا بهتان عظيم _ .

بل يقال لمن يزعم ويجوز تداخل الشيطان وإلقاءه في تلاوته صلى الله عليه وسلم على لسانه أو بين سكتاته يقال له :

وما يدرينا أن الآيات التي نزلت تنسخ ما ألقاه الشيطان وتلاها صلى الله عليه وسلم _ ما يدرينا أن الشيطان ألقى فيها أيضاً ، لأنها من جملة ما يتلوه صلى الله عليه وسلم على الناس ، وقد فسرتم قوله تعالى : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) فسرتموها بأن الشيطان يلقي على لسانه صلى الله عليه وسلم حال تلاوته أو بين سكتاته _ اللهم إني أبرأ إليك من هذا كله .

بل يلزم من ذلك أن جميع تلاوات الرسل والأنبياء على أممهم كان الشيطان يلقي فيها من كلامه على ألسنتهم _ أي : على ألسنة الرسل والأنبياء المتقدمين _ من آدم عليه السلام ، إلى نوح عليه السلام ، إلى الخليل إبراهيم عليه السلام ، إلى الكليم موسى عليه السلام ، إلى روح الله عيسى عليه السلام .

في حين أنه لم ينقل شيء من ذلك لأنه لم يحصل شيء من ذلك ، فإن طرق الوحي وتبليغه مصونة حصينة ، كما دلت على ذلك الآية المتقدمة وهي قوله تعالى : (إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

ففي هذه الآية بيان عام من الله تعالى بحفظه وصيانته لوحيه النازل على رسله كلهم ، حتى يبلغوا تلك الرسالات الإلهية تامة سالمة كاملة ، كما أوحاها الله تعالى إليهم .

فلو صحت قصة الغرانيق لا نتقض خبر الآية ولما تحقق معناها ، بل لضاعت عصمة الأنبياء والمرسلين إذا كان الشيطان يقلي الكفر على ألسنتهم ويسمعه الناس من لسان كل رسول ونبي ، فإن النطق بقصة الغرانيق هو كفر صريح .

فإن قيل إن الشيطان ألقى ذلك في آذان السامعين .

قلنا : هذا مردود أيضاً لأنه يؤدي إلى الالتباس بين وحي الرحمن وإلقاء الشيطان في مقام الهدي والدعوة للإيمان ، فيبلغ الناس وحي الله تعالى متلبساً بإلقاء الشيطان ، فيزدادون ضلالاً وحيرة ، بدلاً من أن يهديهم ويخرجهم من ظلمات جهلهم وحيرتهم .

التاسع _ ويقال لمن جعل قصة الغرانيق سبباً لنزول آية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ويفسر ذلك بأن الشيطان يلقي كلاماً من عنده على لسان الرسول ثم ينزل الله تعالى آيات تنسخ ما ألقاه الشيطان على لسان الرسول أو بين سكتاته _ يقال لمن يزعم ذلك :

إن الآية تقول : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) ومن المعلوم أن الرسول أن الرسول هو إنسان أوحي إليه بشرع من عند الله تعالى يعمل به وأمر بتبليغه للناس .

وأما النبي فهو إنسان أوحي إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه ، فما هو مقصود الشيطان من إلقائه كلاماً من عنده على لسان ذلك النبي إذا تلا ما أوحاه الله تعالى إلى رسول قبله أو في زمنه ، فإن قصد الشيطان التلبس على نفس النبي ، فالنبي معصوم يعرف ويميز بين كلام الرحمن وكلام

الشيطان ، وإن قصد الشيطان التلبيس على السامعين فإن النبي ليس مأموراً بتبليغه للناس حتى يلبس الشيطان على السامعين منه ، بل وربما قرأ ذلك لنفسه منفرداً عن الناس .

ثم إن من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كان مأموراً أن يعمل بكتاب أنزل على رسول قبله ، فهل كان هذا النبي الذي يعمل بكتاب رسول قبله ، هل كان إذا تلا آيات ذلك الكتب يقلى الشيطان في تلاوته ؟

وإذا كان الشيطان يلقى في تلاوته فيلزم من ذلك بناء على زعمكم أن يتنزل آيات تنسخ ما يلقي الشيطان أيضاً حتى يرفع الريبة من قلوب السامعين الذين تلاه عليهم ، وحينئذ يلزم ذلك النبي أن يلحق تلك الآيات بالأصل ، أي : بأن يلحق الآيات النازلة في نسخ ما ألقاه الشيطان بالأصل النازل على الرسول قبله ، لأنها كلها نازلة بالوحي من الله تعالى ، وأيضاً لا بد حينئذ من أن تنزل آيات تنسخ ما ألقاه الشيطان ويتلوها ذلك النبي على الناس ، حتى لا يبقى في قلوبهم ريبة في حين أنه نبي مأمور باتباع رسول قبله ، فيلزم منه أن كل نبي عمل بكتاب رسول قبله أن يزيد فيه ما أنزل عليه ناسخاً لما ألقاه الشيطان ، وربما عمل بكتاب الرسول الواحد عدة من الأنبياء فكم وكم يزاد على الأصل النازل ، والحق الواقع أنه لم يقع شيء من ذلك قطعاً ، بدليل أنه لم ينقل شيء من ذلك عن الرسل ولا عن الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ، مع كثرة وتكرار تلاواتهم آيات الله تعالى على العباد .

العاشر _ إذا كانت قصة الغرانيق ثابتة على الصورة التي نقلت ، وأنها كانت سبباً لنزول آية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا

تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الآية ، إذا كان الأمر كذلك فكيف كانت إلقاءات الشيطان في تلاوات الرسل والنبيين السابقين على قومهم ، هاتوا قصة واحدة ثابتة تبين أن الشيطان ألقى في تلاواتهم نظير إلقاء قصة الغرانيق أو نحوها ، أو أي قصة ألقاها الشيطان في تلاوات أولئك الرسل والأنبياء ، فإنه لم يسمع شيء من ذلك في كتاب نزل من الكتب المتقدمة ، ولا عن بني إسرائيل في حديث من أحبارهم ، ولا عن سلف ، ولا عن خلف قط .

الحادي عشر _ إن أسانيد قصة الغرانيق لا يثبت بها العلم ، ولا تعطي قوة التصديق والجزم ، وإن الله تعالى يقول : (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي : لا تتبع ما لا يوجب العلم اعتقاداً كهذه القصة ونحوها .

ثم يحذر سبحانه من متابعة ما لا يوجب العلم فيقول : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسؤولاً) .

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبلون حديثاً لم يسمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد التثبت والتبين .

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع حديث الاستئذان من أبي موسى الأشعري فيطالبه بمن يشهد له بذلك كما جاء في الصحاح .

روى الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور_ أي : خائف _ فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت فقال : _أي فخرج عمر بعد ذلك _ فقال : _ لأبي موسى _ ما منعك ؟

قال .استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت ، وقال رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم : (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع) .

فقال عمر : والله لتقيمن عليه _ أي الحديث الذي حدثتني به _ بينة ، أفيكم أحداً سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

فقال أبيّ كعب _ لأبي موسى _ والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم قال أبو سعيد : فكنت أصغر القوم ، فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك) .

الثاني عشر _ إن قصة الغرانيق إذا سمع المسلم ذو الفطرة السليمة ، إذا سمع نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضيق لها صدره ، وتشمئز نفسه منها ، وينكرها قلبه وهذا من علامات وضعها وكذبها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلى الله عليه وسلم علمنا هذه العلامات الفارقة بين الثابت عنه صلى الله عليه وسلم والمفترى عليه .

فقد روى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون ـ أي : تعلمون ـ أنه منكم قريب فأنا أولاكم به .

وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه بعيد منكم فأنا أبعدكم منه))[٥] .

ولكن هذه العلامة الفارقة لا يدركها إلا ذو الفطرة السليمة والقلب السليم ،

---

[٥] قال الحافظ الهيثمي رجاله رجال الصحيح كما في 1/ 150 ، وقد رمز في الجامع الصغير إلى صحته .والأشعار جمع شعر والأبشار جمع بشرة ، وهي جلد بدن الآدمي ، وسمي بشراً لأنه بادي البشرة غير مستورها بشعر كما في الحيوانات .

المنور بنور من الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم للحارث : ((عبد نور الله قلبه)) .

قال الحكيم الترمذي : وهذا ـ أي : إدراك الفارق بين الحديث الثابت والمفترى ـ في الكامل ـ أي : في الرجل الكامل بعلمه وعمله وورعه .

إما المخلط المكب على الشهوات ، المحجوب عن الله تعالى ، فليس هو المعني بهذا الحديث ، لأنه صدره مظلم ، فكيف يعرف الحق ، فالمخاطب بذلك من كان طاهر اللب ، عرفاً بالله حق معرفته ، الذي تزول الجبال بدعائه .ا هـ .

وأخرج ابن سعد عن الربيع بن خيثم أنه قال : (إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه) ـ أي : وهذا هو الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن عليه كسوة القلب الذي خرج منه وهو نور النبوة .

قال : (وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تنكره) . ا هـ .

أي وهذا هو الحديث المفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليه ظلمة القلب الذي خرج منه .

قال العلامة المناوي عند هذا الحديث : ولذلك جزم أئمتنا الشافعية ، بأن كل حديث أوهم باطلاً ، ولم يقبل التأويل ، فمكذوب عليه صلى الله عليه وآله وسلم لعصمته . اهـ .

الثالث عشر ـ إن كثيراً من محققي المفسرين والمحدثين وأولي العلم والمعرفة قد أنكروا قصة الغرانيق وبينوا أنها مكذوبة وموضوعة ، كبقية الأحاديث الموضوعة .

فقد قال العلامة المفسر أبو حيان في (البحر المحيط) :

قال : وهي ـ أي قصة الغرانيق ـ قصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتاباً.

قال : وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال ما معناه : إن رواتها مطعون عليهم ، وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه ـ فوجب اطراحها .

قال : ولذلك نزهت كتابي عن ذكرها فيه ، والعجب مما نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

وقال الله تعالى أمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي) .

وقال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) .

وقال تعالى : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) أي : ولكن ثبتناك فلم تركن إليهم أبدا .

قال : فالتثبيت واقع والمقاربة منفية .

وقال تعالى : (كذلك لنثبت به فؤادك) .

وقال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

وهذه نصوص تشهد بعصمته صلى الله عليه وسلم .

قال : وأما من جهة المعقول : فلا يمكن ذلك لأن تجويز ذلك يؤدي إلى تجوزه في جميع الأحكام والشريعة ، فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير ،

واستحالة ذلك معلومة .

قال : ولو جوزنا ذلك لما تحقق قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) أي : فلم يكن صلى الله عليه وسلم عاملاً بالآية ، إذ العمل بها تبليغ ما أنزل الله ، فلو ذاد ـ تلك الغرانيق ـ لا نتفى التبليغ ، فإنه لا فرق بين النقصان من الوحي والزيادة فيه ا هـ [٦].

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى في كتاب حصص الأتقياء :

الصواب : أن قوله تلك الغرانيق العلى ـ من جملة إيحاء الشيطان إلى أولياءه من الزنادقة ، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ـ ليرتابوا في صحة الدين ـ أي : وليلبسوا عليهم دينهم .

قال رحمه الله تعالى : وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية . ا هـ [٧]

وقد بين الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى ان هذه القصة باطلة موضوعة ، ولا يجوز القول بها .

قال تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

وقال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى في رد هذه القصة من جهة الرواية ـ قال : يكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواة ثقات بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلفقون من الصحف كل صحيح وسقيم .

---

[٦] انظر تفسير البحر المحيط ، والمواهب مع شرحها ملخصاً .

[٧] انظر تفسير الآلوسي .

قال رحمه الله تعالى : ولقد صدق القاضي أبو بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسر ، وتعلق بذلك الملحدون ، مع ضعف بعض نقلته واضطراب رواياته وانقطاع اسناده واختلاف كلماته :

فقائل يقول : إنه ـ صلى الله عليه وسلم قال ذلك في الصلاة .

وآخر يقول : قالها في نادي قومه .

وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول بل حدث نفسه فيها ،

وآخر يقول : إن الشيطان قال على لسانه صلى الله عليه وسلم ، وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك .

وآخر يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقلها بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها ـ إلى غير من اختلاف الرواة . ا هـ

وقد نقل العلامة الشهاب في شرح الشفاء عن ابن سيد الناس أنه قال : بلغني عن الحافظ المنذري أنه كان يرد هذا الحديث من جهة الرواية بالكلية .

أي : كان يرد حديث الغرانيق بجميع رواته المتناقضة .

قال وفي سيرة مغلطاي : حديث أن الشيطان ألقاه في أمنيته كما ذكره الكلبي هو مردود الرواة عن باذان عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال مغلطاي : وقد قالوا ـ أي : المحققون ـ : إنه باطل نقلاً وعقلاً . ا هـ .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : وأما توهين حديث الغرانيق ـ من جهة المعنى : فقد قامت الحجة ، واجتمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وآله وسلم ونزاهته من مثل هذه إلخ وأتى بما فيه الحجة القاطعة على

كذب هذه القصة .

وما أحسن جواب العلامة الكبير العارف بالله تعالى الشيخ عبد العزيز الدباغ نفعنا الله تعالى بعلومه وعلوم أهل الله تعالى أجمعين حيث قال حين سئل عن قصة الغرانيق .

فأجاب رضي الله عنه قائلاً :

ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم شيء قط في مسألة الغرانيق ، فإنه لو وقع شيئ من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لارتفعت الثقة بالشريعة ، وبطل حكم العصمة ، وصار الرسول كغيره من آحاد الناس ، حيث كان للشيطان سلاطة عليه وعلى كلامه ، حتى يزيد فيه ما يريده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يحبه ولا يرضاه ، فأي ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم .

ولا يغني في الجواب : أن الله تعالى ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته ـ لا حتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضاً ، لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه .

وحينئذ فيتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن .

والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموحية لمثل هذا الريب في الدين ، وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط ، وأن يعتقدوا في الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجب من كمال العصمة ، وارتفاع درجته عليه الصلاة والسلام إلى غاية ليس فوقها غاية .

ثم على ما ذكروه ـ في تفسير قوله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في

أمنيته) الآية يقتضي أن يكون للشيطان تسلط على وحي كل رسول رسول وكل نبي نبي ـ زيادة على تسليطة على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : (من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) .

فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله تعالى وصفوته من خلقه ولا ريب من بطلان ذلك . ا هـ

* * * * *

تفسير الآية الكريمة كما دل عليه الكتاب والسنة

قال عبد الله : وقد يقول القائل فما معنى الآية الكريمة على الوجه الصحيح المدلول عليه بالكتاب والسنة .

فالجواب عن ذلك لا بد له من مقدمة تمهد سبيل الوصول إلى المعنى الصحيح ، وبها ينجلي الصباح ، ويشرق نور الحق الوضاح .

فأقول مستعيناً بالله تعالى ، ومستلهماً منه الصواب في الجواب :إن اعتبار معاني الآيات القرآنية بالآيات السابقة عليها واللاحقة لها ، ومراعاة المناسبة بينها وبين ما لديها وما خلفها _ ذلك أمر هام لا بد منه في فهم معاني الآيات القرآنية ، وما يراد منها .

فهذه الآية الكريمة وهي : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان) الآية .

هذه الآية الكريمة سبقتها آيات متناسبة معها ، ولحقتها آيات تابعة لها ، ونحن نذكر تلك الآيات كلها ليتضح المعنى .

قال الله تعالى : (قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين فالذين أمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم وما لأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) .

فقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ رسالة ربه ، ويدعو عباد الله تعالى إلى الإيمان ، ويعلن لهم أنه النذير المبين حيث قال له : (قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أي : مبين الإنذار كل البيان ، لما جاء به من الحجة والبرهان .

فكانت النتيجة منهم استجاب وآمن به صلى الله عليه وسلم وعمل صالحا فله البشارة في قوله : (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) .

ومنهم من كذب بالحق الذي جاء به النذير المبين كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (والذي سعوا في آياتنا) _أي:في رد وإنكار آياتنا _ (معاجزين) _أي : معارضين للحق ومعاندين من بعد ما تبين لهم _ (أولئك أصحاب الجحيم) .

وهؤلاء كما وصفهم الله تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات

الله يجحدون) ، وقال تعالى : (وكذبوا) _ أي : بالحق _ (واتبعوا أهواءهم) _ أي : الباطلة ، لأنه ماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ! .

وقال تعالى : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

ومع هذا العناد الصادر من كفرة العباد ، ومع هذا الجحود بعد ظهور الحق ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على هدايتهم وإسلامهم كما قال تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) ، وقال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) .

فجاء صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية الأمة ، ناصحاً لهم ، أميناً ، يسره أن يسلموا ويستجيبوا لدعوته ، ويحب منهم أن يهتدوا بهديه ، ويفرح بذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم ، يحزن حزناً شديداً لإعراضهم وإبائهم وكفرهم ، ويضيق لذلك صدره ، ويشتد عليه ويكبر عليه إعراضهم ، فكانت الآيات الكريم تنزل مسلية له ، ومخففة عنه فيقول سبحانه لحبيبه صلى الله عليه وسلم .

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) .

ويقول : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) .

ويقول : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

ويقول : (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) .

ويقول : (وإن كان كبر عليك إعراضهم _ أي : صعب واشتد _ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .

كل هذه الآيات تدل على شدة حبه صلى الله عليه وسلم هدايتهم ، وحرصه على إسلامهم ، كما تدل على شدة حزنه وأسفه وضيق صدره لإعراضهم وتكذيبهم ، بعد ما تبين لهم الحق كما قال تعالى : (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم)فهم قوم عرفوا الحق وجحدوه وعارضوه ، فأنزل الله تعالى تسلية لحبيبه الأكرم ، وتخفيفاً عنه شدة الحزن والأسى فقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) . وأماني الرسل والأنبياء وبغيتهم أن يؤمن قومهم ، فيلقي الشيطان في أمنيته .

والمعنى : وما أرسلنا من رسول صاحب كتاب وشريعة ، ولا نبي يعمل بشريعة رسول قبله ، إلا إذا تمنى _ أي : أحب وود _ أن يهتدي قومه ويؤمنوا بما جاء به ألقى الشيطان في قلوب بعض السامعين ما يحول دون تحقق أمنيته من شبهات باطلة ، وإشكالات فاسدة ، ليصرف قلوبهم عن الاستجابة والإيمان بما جاءهم به رسولهم أو نبيهم .

سواء قلنا إن المراد بالأمنية التمني والمودة للاستجابة ، أو المراد بأمنيته التلاوة ، فحين يتلو ذلك الرسول أو النبي آيات الله تعالى على قومه يلقي الشيطان في قلوب بعض السامعين الشبهات الضالة ، ويشوش عليهم بوساوس وشكوك ، فيصدهم عن الاستجابة والإيمان الذي هو ما يتمناه ذلك الرسول والنبي صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين .

فينسخ الله ما يلقي الشيطان في قلوب السامعين ، بأن يزيلها ويمحق أثرها (ثم يحكم الها آياته والله عليم حكيم) أي : يثبت تلك الآيات ويمكنها في قلوب المؤمنين ، بأن يتابع بعدها آيات وآيات فيها إبطال لتلك الشبهات والضلالات والشكوك التي ألقاها الشيطان ، ويزيلها بالأدلة القرآنية القاطعة .

ثم إن الله تعالى بين نتيجة ما يلقي الشيطان في قلوب السامعين فقال : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) .

فصارت قلوب السامعين من الناس في هذا الموقف على صنفين :

الصنف الأول :

قلوب قبلت تلك الإلقاءات الشيطانية ، والوساوس والشبهات الضالة وهي قلوب : (الذين في قلوبهم مرض) أي : المنافقين (والقاسية قلوبهم) وهم الكفرة الجاحدون للحق بعد ظهوره ، المعاندون له ، وهؤلاء الذين فتنوا بما ألقاه الشيطان في قلوبهم من الوساوس والشكوك ، فهم في ريبهم يترددون ، وراحوا يشاغبون ويسعون في آيات الله وإبطالها ، ويشيعون ذلك ، كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم في آيات كثيرة ، بين فيها شبهاتهم الباطلة ، الناشئة عن إلقاء الشيطان ذلك في قلوبهم حين تتلى آيات الله تعالى ، ومن تلك الآيات يتضح جلياً ما ألقاه الشيطان في قلوبهم من الأباطيل والضلالات والشبهات الفاسدة ، قال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

فلما سمعوا الآيات القرآنية من النبي صلى الله عليه وسلم ، ألقى الشيطان في قلوبهم أنها أساطير الأولين ، فتكلموا بما ألقى في قلوبهم .

وقال تعالى مخبراً عنهم حين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا) ، فردَّ الله تعالى ، عليهم ذلك وأحكم آياته فقال : (قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) .

وردَّ عليهم بأنه أمي لم يقرأ ولم يكتب فكيف يكتبها ، قال تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) في حين أنه هو النبي الأمي لم يكتب ولم يقرأ كتاباً .

وردَّ الله تعالى عليهم تلك الشبهات في آيات كثيرة .

ومن جملة ما ألقى الشيطان في قلوبهم أن هذا القرآن من قبيل السحر ، وأنه صلى الله عليه وسلم ساحر ، وأنه صلى الله عليه وسلم شاعر ، وهذا كلام متناقض .

قال تعالى : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) .

وقال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين) .

ثم أقلى الشيطان في قلوبهم حين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وما فيه من أخبار القيامة،فاستبعدوا ذلك وعجبوا ووصفوه بالجنون : قال تعالى : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون) .

وقد ردَّ الله عليهم وأحكم آياته وقال : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) بل

أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم لك العقل الأكمل ، فإن الله تعالى أنعم عليك بالنبوة والرسالة العامة ، وإنزال هذا القرآن عليك ، ولا بد لهذا كله أن يلقي عقلاً كبيراً ، وفهماً قوياً ، وذكاء بليغاً .

كما ألقى الشيطان في قلوبهم حين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد عرفوا أن هذا القرآن ليس بكلام البشر ، وقد عرفوا أيضاً صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان ألقى في قلوبهم من باب المعاجزة والمعاندة ، أن يطلبوا منه إحضار آبائهم الأموات ليشهدوا له .

قال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) .

كما ألقى الشيطان ذلك في قلوب الجاحدين قبلهم ، وقد أقلى الشيطان في قلوبهم ليصدهم عن الإيمان _ أقلى عليهم شبهة فاسدة وهي نزول هذا القرآن على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل على رجل من القريتين عظيم عندهم .

قال تعالى : (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) نعم والله لقد نزل القرآن الكريم على رجل عظيم ولا أعظم منه رجلاً ؛ ولا أكمل منه خَلقاً وخُلقاً ، ولا أكبر منه عقلاً ، ولا أذكى منه فهماً ؛ ألا وهو سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم أرادوا بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجل العظيم عندهم في نظرهم قيل : هما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ، وقيل : الوليد بن المغيرة بمكة ، وابن عبد ياليل بالطائف .

كما ألقى الشيطان في قلوبهم حين كانوا يسمعون القرآن من النبي صلى الله

عليه وسلم أنهم خير مقاماً في المجتمع وأحسن نديا ، فلو كان هذا القرآن حقاً لكانوا هم أحق به في زعمهم :

قال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا) .

فرأوا أنهم أرفع منزلة وأعلى مقاماً ، لأنهم أكثر مالاً وأكثر جمعاً ، وهكذا ادعوا لأنفسهم ، وقد ردَّ الله تعالى عليهم بقوله : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) .

أي : فلا عبرة لمظاهر الدنيا ، ولا قيمة لأموالها وحطامها عند الله تعالى ، حتى تستنزل عليهم الوحي من الله تعالى .

ومن ذلك قول قوم نوح لما تلا عليهم وحي الله تعالى : (قالوا : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) .

وقوم شعيب قالوا : (يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) الآية .

الصنف الثاني :

وهناك صنف أخبتت قلوبهم للآيات التي تليت عليهم واطمأنت ، ولم تتردد ولم تؤثر عليها الشكوك ، والوساوس ، لأنها علمت أن الآيات حق ثابت بالأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة ، فآمنت عن علم جازم بحقية تلك الآيات ، وحقية نبوة النبي ورسالته وصدقه دون ارتياب ولا شك .

فهم عقلاء فطناء علموا الحق بالدليل الحق فآمنوا قطعاً ، وهؤلاء هم الذين أشار الله تعالى إليهم بقوله : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك

فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) .

وكيف لا يؤمنون بتلك الآيات ، وبصدق الرسول الذي تلا عليهم صلى الله عليه وسلم ، وقد علموا علماً جازماً أنه صادق ، وما جاء به فهو حق ، لا يحتمل التردد ولا الشك ، كما وصفهم سبحانه بقوله : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) .

وهذا نظير قوله تعالى في الذين آمنوا برسول الله صالح وقد انتقدهم الجاحدون للحق ، قال تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) _ أي : المعرضون عن قبول الحق كبراً قالوا _ (للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) _ أي : هل أنتم على علم جازم بحقية نبوة صالح ورسالته ، وحقية ما جاء به ، وهل ثبت عندكم هذا بالدليل ، أم أخذتم على غرة وغفلة ؟ _ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) _ أي : قد علمنا صدقه وحقية رسالته وما جاء به علماً جازماً لا يحتمل الشك ، ولذلك آمنا به إيماناً قاطعاً .

ومن ذلك قول بلقيس لما أعلنت إسلامها وإيمانها برسول الله سليمان ، كما أخبر الله تعالى عنها بقوله : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين [٨])_ أي : وأوتينا العلم بحقية نبوة سليمان ورسالته وما جاء من الآيات المتقدمة ، وهي الهدهد ، والرسل الذين أرسلهم سليمان يبلغونها [٩] _ علمنا ذلك من

[٨] بناء على أن ذلك من كلام بلقيس ، وهناك قول بأنه من كلام سليمان .

قبل معجزة إحضار عرش بلقيس .

(وكنا مسلمين) _ أي : مؤمنين برسالته لأننا على علم بذلك .

(وصدها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم كافرين) _ أي : ولكن صدها عن إظهار إسلامها من قبل : أنها كانت من قوم كافرين متمكنين في الكفر ، فلم تستطع إظهار إسلامها ، حتى حضرت بين يدي سليمان ، وقد رأى الملأ من قومها تلك المعجزة الكبرى ، وهي إحضار عرشها من سبأ إلى بيت المقدس .

وعلى هذا المعنى جرى جمع من المفسرين ، وإن قوله تعالى : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) هو إخبار من الله تعالى عن مقال بلقيس لما شاهدت عرشها ، وهذا يدل على كمال عقلها كما قال البيهقي وغيره ، ومعناه : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك يا نبي الله سليمان من قبل هذه المعجزة ، أو من قبل هذه الحالة بما شاهدناه من أمر الهدهد ، وما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك ، وكنا مسلمين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة.

ثم بين سبحانه وتعالى السبب المانع من إظهار ما ادعته من الإسلام ، فقال : (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) الآيات .

هذا وإن من شأن الشيطان الرجيم أن يلقي الوساوس والشكوك في القلوب ، ليصد ناساً عن الدخول في الإسلام وعن الإيمان ، وليشوش على أناس دينهم وإيمانهم كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن

---

[٩] انظر تفسير النسفي وتفسير الآلوسي وغيرهما .

ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به .

قال : ((أوقد وجدتموه))؟ قالوا : نعم .

فقال صلى الله علي وسلم : (الحمد لله الذي رد كيده _ أي : كيد الشيطان _ إلى الوسوسة) .

وفي رواية قال : (ذلك صريح الإيمان) [١٠].

وقد بين الله تعالى أن القرآن الكريم حين يسمعه العاقل ويتسرب إلى قلبه حتى يمتلئ به قلبه ، فإنه يتحرك ما في القلب من وساوس وشكوك قد ألقاها الشيطان ، ولكنها سرعان ما تزول وتمحى آثارها .

قال تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومن ما يوقدوا عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) .فقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي : كل من الرسول والنبي يتمنى الإيمان لأمته ، ويحبه لهم ، ويحرص كل الحرص على هدايتهم ، ويحب لهم الخير والرشاد .

وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى : (فلعلك باخع

---

[١٠] كما رواه مسلم وأبو داوود وفي رواية : عن ابن مسعود رضي الله عنه قالوا يا رسول الله : إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة ، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به .
قال صلى الله عليه وسلم : (ذلك محض الإيمان) .

نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

إذاً كان يأسف على إعراضهم عن الإيمان أسفاً شديداً وقال تعالى : (و ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) فهذه الآية صريحة في شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان الأمة ، وهذه أمنية كل رسول ونبي ، فيلقي الشيطان في طريق تحقق هذه الأمنية ما يلقيه في قلوب أمة الدعوة _ من الوساوس والشبهات المانعة من تحقق تلك الأمنية ، فهنا يميز الله تعالى المنافقين والقاسية قلوبهم الذين أعماهم العناد ، وأصمهم عن الحق يميزهم ، من المؤمنين المنصفين الذين عرفوا الحق واعترفوا به .

وينسخ الله تعالى تلك الإلقاءات الشيطانية من قلوب المؤمنين ، ويحكم فيها الآيات المثبتة للحق الذي عرفوه ، وتبقى تلك الإلقاءات الشيطانية من الوساوس والشبهة الفاسدة ، تجول وتضطرب في قلوب المنافقين ، والقاسية قلوبهم عن الاعتراف بالحق بعد ما ظهر ، ليفتنوا به ، فهم في ريبهم يترددون .

فالوساوس الشيطانية تلقى على قلوب الفريقين ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين ، وتبقى على المنافقين والقاسية قلوبهم .

وعلى القول بأن المراد بالأمنية التلاوة : فإن الشيطان يلقي تلك الوساوس في قلوب السامعين لتلك التلاوة ، وتكون نتيجة الفريقين كما تقدم أيضاً .

حفظ الله تعالى هذا القرآن الكريم

بعد تبليغه صلى الله علي وسلم وإبقائه مصوناً محفوظاً إلى يوم الدين

واستلزم ذلك ثلاثة أمور :

قال الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ففي هذه الآية الكريمة يعلن الله تعالى كفالته بحفظ القرآن الكريم بعد تنزيله له ، ويشير سبحانه في هذه الآية الكريمة إلى تخصيص هذا القرآن الكريم بهذه الفضيلة الكبرى ، والخاصة العظمى ألا وهي كفالته بنفسه سبحانه أن يحفظ هذا القرآن الكريم فيقول سبحانه : (وإنا له) _ أي : لهذا القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية _ (لحافظون) .

وهذا الحفظ يشتمل على ثلاثة أمور هامة تدخل تحت هذه الكفالة :

الأول _حفظ حروفه وكلماته كاملة بنصوصها النازلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني _ حفظ بيان هذا القرآن الكريم وهو الحديث النبوي الشريف .

الثالث _ حفظ وإبقاء من يحمل ذلك ويبلغه حتى يأتي أمر الله تعالى _ أي : أمر القيامة .

وإليك تفاصيل ذلك مع الأدلة بعون الله تعالى .

الأمر الأول :

لقد تكفل سبحانه بحفظ نصوص القرآن الكريم المشتملة على حروفه وكلماته كلها بحيث لا يضيع من ذلك شيء .

فأمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذا القرآن على الناس فور نزوله ، وبعد نزوله ، وفي كل مناسبة ومحفل ، ومجتمع وموسم ، ليحفظ هذا القرآن في الصدور ، وليكتب في الصدور .

قال تعالى : (أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة) الآية .

وقال تعالى : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلوا القرءان) الآية .

وقال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا) الآية .
فكان من أهم مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم أن يتلو عليهم القرآن .
وفي هذا إبلاغ لهم ، ودعوة لهم ، وحفظ لهذا القرآن في صدورهم ، وحفظ له في سطورهم ، فتكون محافظ القرآن أولاً وهي الصدور : كما قال تعالى : (بل هو آيات بينات في صدور الذي أوتوا العلم) ، وثانياً هي السطور : كما قال تعالى : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) .
ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يأمر بكتابة القرآن الكريم فور نزوله ، وقد اتخذ كتاباً للوحي القرآني؛ أمناء أوفياء ، هو اختارهم لذلك صلى الله عليه وسلم ، منهم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، ومعاوية ، وأبان بن سعد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم فكانوا يكتبون القرآن الكريم فور نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتقان وإحكام ، واستيعاب كامل ، بحيث لا يضيعون منه حرفاً ولا كلمة ، كما روى البخاري وغيره عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أملي عليه : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) ، فجاء ابن مكتوم وهو صلى الله عليه وآله وسلم يمليها علي ، فقال : يا رسول الله : والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت _ وكان أعمى _ .
فأنزل الله تعالى على رسوله ، وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سريّ عنه صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : (غير أولي الضرر) .

أي : فكتبها كما ورد في رواية أحمد وأبي داوود ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لزيد : ((اكتب (غير أولي الضرر))) .

قال زيد : أنزلها الله تعالى وحدها فألحقتها بها ، فو الله لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف .

قال ابن التين : يقال : إن جبريل عليه السلام هبط ورجع قبل إن يجف القلم _ أي : قلم زيد . ا هـ وقد تقدم بيان هذا .

ومن هنا يفهم العاقل شدة عناية الصحابة واهتمامهم بكتابة القرآن الكريم ، وأنهم لم يضيعوا منه كلمة ولا حرفاً .

بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب عامة من يحسن الكتابة من الصحابة أن يكتبوا عنه القرآن ، ولكن في أول الأمر قصرهم على كتابة القرآن الكريم دون كتابة الحديث ، ثم بعد ذلك أمرهم بكتابة الحديث .

فقد روى مسلم وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تكتبوا عني غير القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه) .

وكان هذا في أول الأمر اهتماماً بتثبيت القرآن في صحفهم فيكتبونه ويحفظونه ويتدارسونه ، ويعلمونه أهليهم وأولادهم وذويهم ، فتكون هممهم متوجهة إلى هدف واحد ، مخافة التشتت ، سيما وهم حديثو عهد بالإيمان والقرآن ، فكانوا إذ ذاك يحفظون أحاديثه صلى الله عليه وسلم متقناً عن ظهر قلب .

ثم أذن لهم صلى الله عليه وسلم في كتابة الحديث فوق الحفظ كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

وأما حفظ القرآن الكريم في الصدور فهو الأصل المعول عليه ، وهو الشرف الأكبر الذي شرف الله تعالى به هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام ، فجعل صدورها مصاحف لآيات هذا القرآن الكريم ، وأوعية لكلامه القديم ، يقرؤونه عن ظهر قلب ، ولا يغسله من قلوبهم تيار ماء ، ولا يمحوه من صدورهم كيد الأعداء .

روى مسلم في صحيحه عن عياض رضي الله عنه أن النبي صلى الله وآله وسلم قال : (إن ربي أمرني إن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته عبداً _ أي : أعطيته عبداً _ حلال ، فلا يجوز أن يحرمه على نفسه ما دام اكتسبه من طريق حلال .

وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن ربي تعالى قال لي يا محمد _ : إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب _ أي : إلا الذين تمسكوا بالكتاب فهم سعداء _ .

قال : وقال الله تعالى لي : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان) الحديث .

فلو غسلت جميع مصاحف السطور فإن القرآن الكريم لا يمحى من الأرض لأنه محفوظ في الصدور التي لا يغسلها الماء .

وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السماوات والأرض _ أي : ليلة المعراج _ قلت : يا رب : إنه لم يكن نبي قبلي إلا

وقد كرمته : جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً وسخرت لداوود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لي ؟ قال : أوليس أعطيتك أفضل من ذلك كله : إني لا أذكر إلا ذكرت معي ، وجعلت صدور أمتك أناجيل _ أي : مصاحف _ يقرؤون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزا من كنوز عرشي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وفي حديث الطبراني وابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في صفة أمته في الكتب السابقة : (وأمته الحمادون ، يأتزرون على أنصافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أناجيلهم _ أي : قرءانهم _ في صدورهم ، يصفون للصلاة كما يصفون للقتال ،قربانهم الذي يتقربون به إلي دماؤهم ، رهبان بالليل ، ليوث بالنهار) .

وكان صلى الله عليه وسلم يحث الصحابة على حفظ القرآن في صدورهم ، وعلى مدارسته ، ويرغبهم في ذلك ، ويبين لهم فضل استظهاره ، فتوجهت هممهم إلى حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من مذاكرته ومدارسته ، فما منهم من أحد إلا والقرآن الكريم في صدره كله أو بعضه .

فقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث سرية إلى أهل بئر معونة كان في السرية سبعون قارئاً قد حفظوا القرآن ، كما جاء في الرواية عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كانوا يتدارسون القرآن بالليل ويصلون) .

قال : (وكنا نسميهم القرّاء) _ وقد قتلوا في تلك الوقعة .

كما أنه استشهد يوم اليمامة من القرّاء سبعون ، وكلهم كانوا قد استوعبوا القرآن وحفظوه .

فقد روى البخاري والترمذي وغيرهما عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر جالس عنده .

فقال أبو بكر رضي الله عنه :

إن عمر جاءني فقال : إن القتل قد استحر _ أي اشتد وكثر _ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في كل المواطن ، وإني أرى يا أبا بكر أن تأمر بجمع القرآن) الحديث .

وفي هذا دليل على كثرة حفاظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم ، باعتبار أن في السرية الواحدة والمعركة الواحدة كان يحضرها منهم سبعون قارئاً حافظاً .

ولسنا نريد استقصاء حفاظ الصحابة وذكرهم باستيعاب ، مخافة الإطالة والخروج عن موضوع بحثنا ، فإن موضع ذلك ومرجعه هو كتب طبقات القراء ، وبعض التواريخ ، وكتب تراجم الصحابة رضي الله عنهم .

الأمر الثاني :

حفظ بيان القرآن الكريم وهو الأحاديث النبوية :

قال الله تعالى : (أن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم علينا بيانه) فقد تكفل سبحانه أن يجمع القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم محفوظاً ، وتكفل بأن يقرئه إياه كما أنزله عليه ، وتكفل بأن يبين له معاني القرآن الذي نزل عليه ، ومن هنا يفهم أن بيانه صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم هو : وحي من الله تعالى .

قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وهي السنة النبوية .

وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم قال تعالى:(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) .

فالسنة النبوية المحمدية بما اشتملت عليه من أقوال وأفعال وتقرير ، وهي بيان للقرآن الكريم ، وقد حفظها الله تعالى أيضاً في صدور الصحابة ، وفي سطور كتبهم ، ثم في صدور التابعين وكتبهم ، ثم أتباع التابعين ، ثم بعد ذلك ضعفت عزائم أهل الحفظ في الصدور ، فقل المحدثون الحفاظ ، وبقيت كتب الحديث محفوظة برواياتها وأسانيدها ، وضبطها وإعجامها وتحقيقها ، وتدقيق نسخها ، مع التنبيه إلى تعدد نسخها على وجه مصون مضمون .

مع الاهتمام الكبير والعناية التامة في المصنفات الحديثية من الجوامع ، والسنن ، والمسانيد ، والموطآت ، والمعاجم ، والمصنفات الكبيرة ، والأجزاء ، وكتب الأطراف ، إلى غير ذلك .

والمصنفات في بيان الموضوعات ، والمصنفات في الضعاف ، والمصنفات في الضعفاء والمتروكين ، والمصنفات في أحوال الرجال ، والمصنفات في تواريخ رجال الأسانيد ، إلى ما وراء ذلك ، فقد حفظ الله تعالى أحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بتلك المصنفات الكبرى ، والمؤلفات العظمى ، وجميع ذلك يرجع إلى حفظ الله تعالى لهذه السنة المحمدية ، التي بذل علماء الحديث فيها جهوداً ، واهتموا بضبطها كل الاهتمام ، خدمة لكتاب الله تعالى والسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً _ نفعنا الله تعالى بهم وبعلومهم ، وجعلنا من الناهجين مناهجهم ، والسالكين فجاجهم ، ابتغاء مرضاة الله تعالى

ورسوله صلى الله عليه وسلم _ آمين .

وإليك تفاصيل الكلام على ما تقدم بأدلته :

أولاً _ اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ أحاديثه في الصدور ، وفي تبليغها ونشرها :

كان صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من مجالسه مع الصحابة ليحدثهم في المسجد وفي غيره ، وكان صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه _ أي : لتحفظ بنصها ، ويفهم معناها ، كما ورد ذلك في الصحاح .

وكان صلى الله عليه وسلم كما وصفه هند بن أبي هالة : يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل : لا فضول ولا تقصير .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم أصغى الجلساء إلى كلامه ، وانفتحت قلوبهم لحديثه ، وأطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وهذا كله مما يساعدهم على استيعاب حديثه ، ووعيه وحفظه .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم ينهض بهمة الصحابة إلى حفظ أحاديثه ووعيها وتبليغها ، وينشطهم لذلك ، ويرغبهم في ثواب ذلك في المجامع العامة والخاصة ، والمواسم والأعياد ، وغيرها .

فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف في منى يقول : ((نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها ، فرب حامل فقهٍ لا فقه له ، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن،إخلاص العمل لله تعالى،والنصيحة لأئمة المسلمين،

ولزوم جماعتهم ،فإن دعوتهم تحفظ من وراءهم)) .

وفي رواية : ((تحيط من وراءهم)) .

ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ :

خطبنا رسول اله صلى الله عليه وآله وسلم بمسجد الخيف في منى فقال :

((نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها ، ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها ، ألا فرب حامل فقهٍ لا فقه له ، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه)) الحديث كما في ترغيب المنذري .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يحث أصحابه على تحمل أحاديثه وحفظها ثم تبليغها ونشرها في مجالسه العامة والخاصة .

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

((نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه غيره ، فرب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقهٍ ليس بفقيه)) رواه أهل السنن الأربعة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

((نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاَ فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع)) . رواه أبو داوود والترمذي وقال : حسن صحيح .

ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ :

((رحم الله امرءاً سمع منا شيئاَ فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع)) .

فمن هذه الأحاديث التي ذكرتها لك يتبين قوة اهتمامه صلى الله عليه وسلم

بحفظ أحاديثه وأقواله ، وأدائها وتبليغها ونشرها ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو لمن يحفظ حديثه ويبلغه بالنضارة ، وهي كما قال المنذري : النعمة والبهجة والحسن . ا هـ

وقال بعضهم بياض الوجه في الدنيا وفي الآخرة (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

اللهم بيَّض وجوهنا يا مولانا بأنوار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة .

ولذلك كان الصحابة يهتمون بحفظ الأحاديث ومدارستها ونشرها .

فعن أنس رضي الله عنه قال : (كنا قعوداً عند النبي صلى الله عليه وسلم فيحدثنا الحديث ثم يدخل لحاجته فنراجعه بيننا ؛ هذا ، ثم هذا ، فنقوم كأنما زرع في قلوبنا) ، رواه أبو يعلى في المسند .

ودعا برحمة الله تعالى لمن يحفظ حديثه ويبلغه _ وكفى المحدثين شرفاً أنهم دعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم ارحم خلفائي) .

قلنا : يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟

قال : ((الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويلمونها الناس)) .

وهكذا خص النبي صلى الله عليه وسلم على نشر العلم الذي جاء به صلى الله عليه وسلم ، وبين فضل ذلك واستمرار أجر ذلك .

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ((ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر)) [١١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((نعم العطية كلمة حق تسمعها ، ثم تحملها إلى أخ لك مسلم فتعلمها إياه)) [١٢].

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت : رجل مات مرابطاً في سبيل الله ، ورجل علمّ علماً فأجره يجري عليه ما عمل به ، ورجل أجرى صدقة فأجرها له ما جرت ، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له)) .

كما حذر النبي صلى الله عليه وسلم من كتمان حديث ، أو علمٍ يؤخذ عنه : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم : (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) [١٣].

وفي رواية لابن ماجه : (ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوماً بلجام من نار) .

فمن كتم علماً نافعاً ولو لم يسأل عنه ألجم بلجام من نار ، كما دل على ذلك رواية ابن ماجه المتقدمة ، وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) رواه ابن ماجه .

---

[١١] قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير وغيره .

[١٢] قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير ونسب أن يكون موقوفاً _ على ابن عباس _

[١٣] رواه أصحاب السنن .

ومن أجل ذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحرصون كل الحرص على أن يبلغوا ما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو قبيل وفاتهم تأثيماً ، وكانوا يخافون أن يموت أحدهم وعنده حديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغه ، خوفاً من وعيد الكتمان .

فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه يحدث عند موته بحديث كان سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يموت ولم يحدث به :

روى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل .

قال : ((يا معاذ بن جبل)) .

قال : لبيك يا رسول الله وسعديك .

قال : ((يا معاذ بن جبل)) .

قال : لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) .

قال : ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : صدقاً من قلبه إلا حرمه الله عن النار)) .

قال : يا رسول الله : أفلا أخبر الناس فيستبشروا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : ((إذاً يتكلوا)) .

وأخبر بها معاذ عند موته تأثيماً أي : بعداً عن إثم الكتمان .

وهذا عبادة بن الصامت كما روى أبو داوود والترمذي عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت :

يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يا رب وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى يوم القيامة)) .

يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من مات على غير هذا فليس مني)) .

وهذا أبو ذر رضي الله عنه يقول : (والله لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار إلى قفاه [١٤] ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا علي لا نفذتها) رواه البخاري .

ومن هنا تفهم شدة خوف الصحابة رضي الله عنهم من أن يموت أحدهم وعنده حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبلغه للناس فكانوا يحرصون على تبليغ أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، ويحرضون على تبليغها عنهم :

كما ورد عن سليم بن عامر قال : كنا نجلس إلى أبي أمامة فيحدثنا حديثاً كثيراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سكت قال : (أعقلتم ، بلغوا كما بلغتم) .

وقال مكحول : دخلت أنا وابن زكريا وسليمان بن حبيب على أبي أمامة بحمص فسلمنا عليه فقال : (إن مجلسكم هذا من بلاغ الله تعالى لكم ، واحتجاجه عليكم ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ فبلغوا) [١٥].

ثانياً _ ترغيبه صلى الله عليه وسلم بكتابة أحاديثه :

ولذلك كان الكتبة من الصحابة يتسارعون إلى كتابة القرآن الكريم ،

---

[١٤] أي : إلى قفى رأسه

[١٥] قال الحافظ الهيثمي : رواهما الطبراني في الكبير وإسنادهما حسن . ا هـ

والحديث النبوي الشريف ، حتى قال لهم صلى الله عليه وسلم : (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه) الحديث.

فما نهاهم عن كتابة الحديث ، وقصرهم على كتابة القرآن إلا لأنهم كانوا يحرصون على كتابتهما ، فنهاهم في أول الأمر عن كتابة الحديث ، وقصرهم على كتابة القرآن الكريم بعداً عن الاشتباه ، أو عدم الانتباه ، باعتبار أنهم حديثو عهد بالإسلام ، وباعتبار أن صغارهم ونساءهم ربما لا يفرقون بينهما ، ثم أذن لهم بعد لإدراكهم الفرق بين الكلام المعجز والجامع من وجوه متعددة وأساليب مختلفة ، فصاروا يكتبون الحديث النبوي فمنهم المقل ومنهم المكثر ، ومنهم من يكتب لنفسه وقد يكتب لغيره ممن لا يحسن الكتابة .

ويدلك على اهتمام الصحابة بكتابة الحديث النبوي ما يلي :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه مني ، إلا ما كان عن عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب) .

وقد تقدم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه كان يكتب كل شيء سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال له : (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق) ، وأومأ صلى الله عليه وسلم بأصبعه إلى فمه الشريف .

وروى البخاري عن أبي جحيفة قال : (قلت لعلي رضي الله عنه : هل عندكم كتاب _ أي : كتاب خاص بكم) ، فقال : (لا ، إلا كتاب الله ، أوفهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة) .

قال : (قلت وما هذه الصحيفة؟) .

قال : (العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر) .

وفي الحديث المتفق عليه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن خطب صلى الله عليه وسلم قال : (اكتب لي يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : (اكتبوا لأبي فلان) الحديث .

فأمر الكتبة أن يكتب أحدهم للرجل خطبته صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا يتبين حرص الصحابة على كتابة الحديث .

وفي حديث محمد بن مسلمة الذي رواه الحافظ الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي بسنده عن محمد بن سعد قال : لما مات محمد ابن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً :

بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها ، لعل دعوة أن توافق رحمة ، فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً) الحديث _ وله شواهد كثيرة .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (يا رسول الله إني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استعن بيمينك) وأومأ بيده إلى الخط .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يوجه إلى الكتبة تعليمات تساعدهم على

حسن الكتابة :

فقد روى الترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه كاتب فسمعته صلى الله عليه وسلم يقول له : (ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي) .

ومما تقدم ذكره يعلم أن السنة النبوية قد بدأ تدوينها في الكتب في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كتبوا من السنة كتباً منها مجامع كبرى مثل كتاب عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب فيه كل شيء سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، ومنها الوسطي في جمعها ومنها الأجزاء ، وهكذا تتابع التدوين في كتب الجوامع والتصانيف والمساند والمعاجم ونحوها من كتب الحديث النبوي الشريف ، إلى جانب نشرها في مجالس حافلة جامعة يعقدونها لقراءة الحديث النبوي الشريف ، فحفظ الله تعالى أحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

فقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أنه كتب إلى أبي بكر بن حزم : (انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا يقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليفشوا العلم ، وليجلسوا للناس حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك _ أي : لا يذهب ويقضى عليه _ حتى يكون سراً) . ا هـ

أي : فما دام ينشر في القراطيس ويغشى في المجالس والحلقات العلمية فهو باق ومحفوظ والحمد لله رب العالمين .

ولقد كانت مجالس التحديث تجمع جموعاً كبيرة كثيرة متنوعة من جميع الطبقات ، فمنهم الذي يكتب ما يسمع من الحديث ، ومنهم الذي يحفظ ، وقد ذكر العلماء أن الإمام البخاري كان يحضر مجلس تحديثه في رحبة بغداد حين رحل إليها كان يحضر مجلسه عشرة ألاف من مختلف طبقات الناس .

وقد ذكروا أن أبا مسلم الكجي حضر مجلس حديثه أربعون ألفاً معهم المحابر يكتبون ، ما عدا بقية المستمعين ، وقد أعانه على إسماعهم سبعة مستملين يبلغون عنه ، إلى غير ذلك كما هو مفصل في موضعه _ والحمد لله رب العالمين .

الأمر الثالث :

حفظ وبقاء حملة الكتاب والسنة وتبليغ ذلك للأمة إلى يوم الدين :

قال تعالى : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) .

فلا بد في كل عصر من علماء وقراء يحفظون القرآن ، أي : يقرؤون القرآن عن ظهر قلب ، وقد يكثرون وقد يقلون ، ولكن ما ينقطعون إلى يوم الدين ، يشير إلى ذلك الحديث الذي رواه مسلم كما تقدم في الحديث القدسي : (وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان) .

فإذا كانت محافظ القرآن هي الصدور فإن الماء لا يغسلها ، وأما السطور فإن الماء يغسلها_إذاً لا بد من بقاء هذه المحافظ حتى يبلغ إلى آخر الأمة .

فلا بد من حفظ الكتاب وحفظ بيانه ، ولا بد لهما ممن يحملهما ويبلغهما إلى يوم القيامة ، قال الله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما

لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) . فالكتاب الذي لبثوا فيه إلى يوم البعث ما هو إلا هذا القرآن الكريم ، وأما التوراة والإنجيل فقد جرى عليها ما جرى من تحريف وزيادة ونقص ، وجاءت إلى أزمنة معينة ، ثم تبدلت وتبددت على مدى الأيام ، وهذا ظاهر وإن الآيات اللاحقة بعد هذه الآية تشير إلى أن المراد بكتاب الله تعالى هنا _ القرآن كما سيأتي ، فيقال للذين كفروا بهذا القرآن : (لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) _ يعني : أن القرآن جاءكم بعلوم ومعارف وأدلة وبراهين يقينية ، فكنتم تعرضون عنها ، فهذا الكتاب يقول لكم : إعلموا وأنتم تعرضون ولا تعلمون ، ويقول لكم : لعلكم تعقلون ، وأنتم تعرضون ولا تعقلون ما جاءكم به ، ولا تتفكروا ، إذا فالنتيجة : (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا) _ أي : ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن معرفة الحق وتعاميهم عن آياته _ (ولا هم يستعتبون) والاستعتاب هو طلب العتبى ، وهي الاسم من الإعتاب ، بمعنى إزالة العتب ، فهم لا يستعتبون لأنهم لا ينفعهم الاعتذار بعد التحذير والإنذار .

ومن ثم قال تعالى بعد ذلك : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي : بينا لهم في هذا القرآن المجموع في الكتاب الذي لبثوا فيه إلى يوم البعث ، بينا لهم كل دليل واضح يجري مجرى المثل في إثبات التوحيد ، وصدق النبوات والرسالات ، وإثبات اليوم الآخر ، وحقية الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك من القضايا الإيمانية .

(ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا) _ جحدوا الحق وأعرضوا عنه

يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ومن آمن به_(إن أنتم إلا مبطلون).
وهذا نظير : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) .
ثم يقول الله تعالى : (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي : لا يعلمون العلم الحق بعد ما جاءهم ، ولا يفكرون فيه ، ولا يسعون إلى علم ما جاءهم به كتاب الله تعالى من البينات والهدى ، بل يعرضون وينكرون ويستهزؤن : (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) .
فهذه الآيات كلها شواهد على أن المراد بكتاب الله تعالى في قوله تعالى : (لقد لبثتم في كتاب الله تعالى إلى يوم البعث) هو القرآن الكريم ، فهو باق إلى يوم الدين ، وحملته ألوا العلم والإيمان أيضاً باقون خلفاً عن سلف ، حتى يأتي أمر الله تعالى ، كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتواتر الذي جاء بروايات متعددة ، وفي ضمن أحاديث كثيرة ، ولذا نص علماء الحديث على تواتره :
وهو كما جاء عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) .
وروى البخاري وغيره عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك) ، هذا نص بعض روايات البخاري .
وقد روى هذا الحديث أهل الجوامع والسنن والمساند وغيرها .
قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في التهذيب مبيناً هذه الطائفة المخبر

عنها في الحديث قال : حملة العلماء أو جمهورهم على أهل العلم ، وقد دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها) يشير إلى الحديث المتقدم .

وقال رحمه الله تعالى : وجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم عدولاً ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين) .

قال النووي رحمه الله تعالى : وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه ، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر عدولاً يحملونه وينفون عنه .

قال رحمه الله : وهو من أعلام نبوته ، ولا يضر معه كون بعض الفساق يعرفون شيئاً من العلم لأن الحديث _ أي قوله صلى الله عليه وسلم : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) _ إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه ، لا أن غيرهم لا يعرف منه شيئاً . ا هـ يعني : أن المعول عليهم في حمله وحفظه وصيانته _ هم عدول كل خلف .

وقال النووي رحمه الله تعالى : يجوز أن تكون الطائفة _ أي : المخبر عنها في الحديث الأسبق (لا تزال طائفة من أمتي) .... الحديث _ متعددة من أنواع الأمة ما بين فقيه ومحدّث ومفسّر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهد وعابد ، ولا يلتزم اجتماعهم ببلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وتفرقهم في الأقطار ، ويجوز أن يكونوا في بعض الأقطار دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً إلى أن لا يبقى إلا طائفة في بلد واحد ، فإذا انقرضوا

جاء أمر الله تعالى بقيام الساعة [١٦] . ا هـ

وهذا الحديث وهو (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) هو كما أورده الإمام القسطلاني في مقدمته على شرح البخاري :

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) .

قال القسطلاني رحمه الله تعالى : وهذا الحديث رواه من الصحابة _ علي كرم الله وجهه ، وابن عمر ، وابن عمرو ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر بن سمرة ، ومعاذ ، وأبو هريرة رضي الله عنهم .

قال : وأورده ابن عدي من طرق كثيرة كلها ضعيفة كما صرح به الدار قطني وأبو نعيم وابن عبد البر _ لكن يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه ويكون حسناً كما جزم به ابن كيكلدي العلائي [١٧]. ا هـ

حفظ الله تعالى لهذا القرآن العظيم من التحريف

والتبديل والزيادة والنقصان إلى يوم الدين

وإثبات ذلك بوجوه من الأدلة الموجبة لليقين

لقد تكفل سبحانه وتعالى أن يحفظ هذا القرآن الكريم من التبديل والزيادة والنقصان إلى يوم الدين ، وذلك ثابت قطعاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية :

---

[١٦] وقد نقل ذلك القسطلاني في مقدمة شرح البخاري ، والزرقاني أيضاً نقل ذلك .

[١٧] أي : ويكون حسناً لغيره كما هو المقرر في علم الحديث بلا شك .

قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) : فأخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عن أمرين عظيمين :

الأول _ أنه سبحانه هو الذي أنزل هذا الذكر _ أي : القرآن الكريم _ ولم ينزل من عند غير الله تعالى ، والمعنى : أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى قطعاً لا من عند غيره ، لأن غير الله تعالى لا يقدر على الإتيان به ، ولا يستطيع أن يأتي بمثله نصاً ، ولا إعجازاً ، ولا إحكاماً لآياته ، ولا أحكاماً لشريعته ، ولا إخباراً عن المغيبات ، ولا عن العوالم العلوية والسفلية ، ولا إحاطة ببعض تلك العلوم والمعارف التي جاء بها هذا الكتاب الكريم والقرآن العظيم ، فإعجاز هذا الذكر الذي ذكر الله تعالى فيد ما يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله _ دليل على أنه حقاً ليس كلام مخلوق ؛ بل هو كلام الله تعالى الخالق ؛ أنزله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذا قال سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر) أي : لا غيرنا لأن غير الله تعالى لا يستطيع ذلك .

الثاني _ الذي أخبرت عنه الآية الكريمة هو قوله تعالى : (وإنا له لحافظون) :

والمعنى أنه سبحانه الذي أنزل هذا القرآن الكريم هو تكفل أن يحفظه من التلاعب فيه ، والزيادة والنقصان ، فكما يجب الإيمان قطعاً بأن هذا القرآن أنزله الله تعالى _ يجب أيضاً الأيمان قطعاً بأن الله تعالى هو حافظ لهذا القرآن قطعاً .

وهذا من خصائص القرآن الكريم ، فإن الله تعالى لم يتكفل بحفظه أي كتاب أنزله على رسله السابقين .

فلم يتكفل بحفظ التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور وغيرها ، بل وكل حفظها للربانيين والأحبار :

قال الله تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار _ أي : يحكمون بذلك _ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية .

فلقد استحفظهم الله تعالى إياها ، فما استطاعوا أن يحفظوها من الزيادة والنقصان والتحريف .

أما هذا القرآن العظيم فقد تولى الله تعالى حفظه حيث قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلم ينله تبديل ولا تحريف ، ولا زيادة ولا نقص، ولن يناله ذلك أبداً ، لأن الله تعالى الحفيظ العليم هو تولى بنفسه أن يحفظه ، وشتان بين حفظ الخالق وحفظ المخلوق .

ومن ثم قال سبحانه : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فمن هذه الآيات الكريمة يتضح للعاقل وضوحاً جلياً ، أن هذا القرآن هو مصون عن عبث العابثين ، وتلاعب المتلاعبين ، محفظ من التحريف والتبديل والزيادة والنقص ، أبداً إلى يوم الدين .

وهذا أمر يجب الإيمان به جزماً ، والاعتقاد به قطعاً ، لثبوت ذلك بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة :

الدليل الأول _ قوله سبحانه : (وإنّا له لحافظون) فلو جرى على هذا القرآن تبديل أو تغيير ، أو زيادة أو نقص ، لما صح الخبر في قوله تعالى : (وإنا له لحافظون) ولما صدق الله تعالى وعده بالحفظ لهذا القرآن

العظيم _ وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فإن الله تعالى لا يخلف وعده ، وإن خبره صادق محتم الوقوع ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ ومن أوفى بعهده من الله تعالى ؟ فإنه سبحانه لا يكذب خبره ، ولا يتخلف وعده ، ولا تنقض كفالته .

وقوله تعالى : (وإنا له لحافظون) هو كفالة من الله تعالى موثقة ، وخبر مؤكد ، ووعد محتم ، يعلم ذلك من تدبر قوله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

الدليل الثاني _ قوله تعالى : (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فلو أنه جرى على هذا القرآن العظيم تبديل أو زيادة أو نقص لكان ذلك منافياً ومعارضاً لقوله تعالى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وذلك لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية أن الباطل لا يأتي هذا القرآن ، ولا يتسرب إليه ، لا في نصوصه ، ولا في معانيه ، فهو لا يعارض ولا يناقض ، ولا يزاد فيه ولا ينقص قطعاً ، لأن الزيادة فيه هي باطلة ، باعتبار أنها ليست منه ، وإن النقص منه هو أيضاً باطل لأن فيه إبطالاً لما هو من القرآن حقاً دالاً على حق .

فقوله تعالى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) دليل صريح على صيانته وحفظه من التلاعب والزيادة والنقص ، فإن الخبر القرآني لا يتخلف ولا يتبدل .

الدليل الثالث _ قوله سبحانه : (قل أي شيءٍ أكبر شهادة قل : الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) الآية الكريمة .

فقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس : أوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به أيها الناس ، أي : الذين بلغتكم وشافهتكم في قرني (ومن بلغ) أي : وأنذر به كل من بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة ، ومعنى ذلك : أن الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن ينذر بهذا القرآن الكريم أول هذه الأمة ، ووسطها ، وآخرها ، على حد سواء ولذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم : (من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ثم يقرأ : (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)[١٨] .

فقد جعل الله تعالى القرآن الكريم حجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع العالم ، وبلاغاً عنه لكافة العباد إلى يوم المعاد ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة العامة إلى جميع الثقلين ، إلى يوم القيامة ، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يبقى كتابه الذي أنزله الله تعالى عليه _ يبقى محفوظاً إلى يوم الدين ، لتقوم الحجة على العباد ، وليهتدوا به إلى سبيل الرشاد ، فيبلغه آخر هذه الأمة كما بلغه صلى الله عليه وآله وسلم لأولها .

فلو جاز أن يجري عليه تحريف أو زيادة أو نقص ، لما تحقق إنذاره صلى الله عليه وآله وسلم _ لمن يأتي من بعده ، كما أنذر الذين في عصره ، في حين أن الآية الكريمة تخبر بإنذاره صلى الله عليه وآله وسلم لمن في عصره ولمن بعده على حد سواء .

قال تعالى : (قل : أي شيء أكبر شهادة قل : الله شهيد بيني وبينكم وأوحي

---

[١٨] رواه أبو نعيم والخطيب وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما نحو ذلك عن محمد ابن كعب القرظي .

إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي : وقل لهم : أوحي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .

فأكبر شاهد شهادته هي أكبر من كل الشهادات بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الله العلي الكبير، الذي أعلن شهادته بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في الآيات التكوينية : السماوية والأرضية ، والشجرية والمائية ، والطعام والشراب ، وغير ذلك وهي المعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه صلى الله عليه وسلم شهادة له بأنه رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم ، ومن تلك الآيات السماوية انشقاق القمر وإمطار المطر ونحو ذلك .

كما أنه سبحانه أعلم عباده بشهادته أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسوله في آياته القرآنية :

قال الله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم ، فهذا معنى : (قل : أي شيء أكبر شهادة قل : الله شهيد بيني وبينكم) الآية .

الدليل الرابع _ قله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) .

ففي هذه الآية الكريمة بيَّن الله تعالى أن إنزال هذا القرآن هو بالحق ، وأنه قد نزل بالحق ، فهو الحق الموجب لليقين ، والموجب للثقة كل الثقة به ، وبما جاء به ، كما قال تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) الآية .

وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) فهو الحق الموجب للطمأنينة والثقة به وبما أنزل به بلا شك ولا ارتياب .

فلو جاز على هذا القرآن تحريف أو زيادة أو نقص ، لأدى ذلك إلى ذهاب الثقة به ، ولأدى ذلك إلى عدم الإيمان الجازم بما جاء به .

وكيف لا يوثق به ولا يقطع جزماً بما جاء به ، مع أن الله تعالى بيَّن لعباده أن هذا الكتاب بجميع آياته _ هو الحق الموثوق بحقيته ، والمقطوع بحقيته ، لا يتطرق الباطل ولا الخلل إلى جانب من جوانبه كما قال تعالى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فإن فحوى هذه الآية ونصها يناديان العقلاء بأن الثقة كل الثقة ، واليقين كل اليقين ، والحق كل الحق ؛ ذلك كله في هذا الكتاب العزيز الذي لا يجد الباطل إليه سبيلا .

فلو جرى عليه تحريف أو زيادة أو نقص ، لذهبت الثقة به واليقين بما نزل به ، وهما أمران ثابتان بنص (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) الآية .

أما ذهاب الثقة بالمزيد فالأمر بيَّن لأنه ليس من كلام الله تعالى بل هو كلام مفترى .

وأما ذهاب الثقة بالمزيد عليه ، فإن العاقل يقول : لعل في هذا الأصل زيادة أيضاً فما يدرينا أنها كلها أصل ؟

وأما ذهاب الثقة به _ بالقرآن حال النقص منه _ فذلك لأن بين الأصل المنقوص والشيء الناقص منه ارتباطاً في المعاني والأحكام ، والإحكام والأخبار ، وغير ذلك من المناسبات المحكمة .

فلو جرى عليه النقص لأدى ذلك إلى عدم الثقة بالناقص والمنقوص منه ، فلا يكون أحد من المسلمين على ثقة بدينه لاحتمال نسخ بعض الصلوات أو تغيير أوقاتها ، أو الزيادة عليها ، أو نسخ للزكاة ، أو نسخ مقاديرها ،

أو نسخ الصيام ، أو الزيادة فيه ، أو بتبديله بغيره ، ونسخ الحج ، أو تحليل بعض المحرمات ؛ كالخمر والميسر ونحوهما من المحرمات ، أو تحريم بعض أنواع من الحلال ...

وبذلك لا يكون أحد من الناس على عبادة إلا هو على شك منها ، ولا يحجم عن حرام إلا وهو متشكك ، فأين الإيمان والجزم بشرع الله تعالى _ نعوذ بالله من ذلك ، وحينئذ لا يمكن الإيمان الجازم والحالة هذه إلا ببعثة نبي يبعثه الله تعالى يبين للناس ما نقص من هذا القرآن أو ما زيد فيه .

وكيف يكون ذلك وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أنه لا نبي بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بل هو خاتم النبيين : قال تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً).

فهو سبحانه يعلم بعلمه القديم الذي لا يتبدل ولا يتغير ، أن ختم النبوات لا يليق به إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي) وهذا حديث متواتر عنه صلى الله عليه وسلم .

ولذلك نرى أن الكتب السماوية السابقة لما كانت في معرض التحريف والزيادة والنقص ، اقتضت حكمة الله تعالى أن يتابع ويوالي بين بعثة الأنبياء ، بحيث ما يذهب نبي إلا بعث الله تعالى نبياً آخر، وربما اجتمع في زمان واحد عدة من الأنبياء :

قال تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه) وذلك لأجل أن يبينوا للناس ما نزل إليهم من ربهم ، ويبعدوهم عن الشك في دينهم ، بحيث يكونون على يقين في كتابهم وشريعتهم ، وبذلك تقوم حجة

الله تعالى على العباد ، قال تعالى : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

فأما هذا الكتاب العزيز الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى ، فهو باق إلى يوم القيامة ، محفوظ مصون عن التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، لأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة ، باقية خالدة ، ليست خاصة لأقوام معينين ، ولا لأزمنة خاصة .

فها هنا أمران عظيمان هامَّان يجب الانتباه إليهما وهما متلازمان لا ينفكان عن بعضهما .

الأول : عموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى جمع الثقلين إلى يوم الدين .

الثاني : حفظ كتابه العزيز النازل عليه صلى الله عليه وسلم وإبقائه مصونا محفوظاً من التلاعب إلى يوم الدين .

فالطعن في أحد هذين الأمرين هو طعن في الأمر الآخر لأنهما مرتبطان ببعضهما ، فكما أن عموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ثابت بالنصوص القطعية :

نحو قوله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) الآية .

وقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وقوله تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده لكون للعالمين نذيراً).

وقوله تعالى : (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) الآية .

كذلك أيضاً حفظ الكتاب النازل عليه صلى الله عليه وسلم ثابت بالأدلة القطعية .

الدليل الخامس : قول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) الآية .

لقد ذكر الله تعالى التوراة النازل على موسى عليه السلام بالمدح والتعظيم ، ثم ذكر الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام بالمدح والتعظيم .

فقال سبحانه : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية .

وقال سبحانه : (ثم قفينا على آثارهم بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) الآية .

ثم ذكر سبحانه هذا القرآن وبيَّن منزلته من بين الكتب السماوية ، ورفعة رتبته على جميع الكتب السماوية قبله ، وأنه المهيمن على جميعها فقال سبحانه : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله) الآية .

فقد أخبر سبحانه عن رتبة هذا الكتاب العزيز بالنسبة لجميع الكتب قبله ، بأنه مصدق لما جاءت به من عند الله تعالى ، ؛ وأنه المهيمن على جميع على جميع الكتب قبله ، بمعنى : أنه الأمين المؤتمن عليها ، والحكم الشاهد بصدق ما جاء فيها من عند الله تعالى .

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه : باب كيف نزل الوحي ، وأول ما نزل .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : المهيمن : الأمين ، والقرآن أمين على

كل كتاب قبله . ا هـ

فهذا القرآن الكريم هو الأمين الحكم على كل كتاب قبله ، يحق ما فيه من حق ، ويبطل ما حرف منها وأدخل عليها من باطل .

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : المهيمن : الشاهد .

وفي رواية عنه فسَّر المهيمن هنا بمعنى الحاكم _ وكلها متقاربة ومتلازمة ، فهذا القرآن هو الأمين على الكتب قبله والشاهد والحاكم .

فإن كان موقف القرآن قبله أنه هو الأمين عليها والحاكم على ما فيها _ فلا يمكن أن يجري عليه تحريف ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص كما جرى على الكتب قبله ، لأنه هو لو جرى عليه تبديل أو تحريف ، أو زيادة أو نقص لاحتاج إلى أمين آخر ، وحكم آخر يحكم على ما فيه_هذا من وجهٍ.

ومن وجه آخر نقول : إذا جاز على هذا القرآن تحريف أو تبديل ، أو زيادة أو نقص فإن الله تعالى يكون قد نصب على كتبه السماوية السابقة أميناً غير مضمون ، وحكماً غير مأمون _ تعالى الله الحكيم العليم عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن في جعل الله تعالى هذا القرآن الكريم مهيمناً على الكتب قبله وأميناً حكماً عليها ، إن في ذلك شهادة من الله سبحانه بضمانة هذا القرآن العزيز ، وأمانته ، وحفظه من التلاعب والتبديل ، والزيادة والنقص .

ولذلك حق له أن يكون مهيمناً على الكتب السماوية قبله ، حكماً عليها ، وشاهداً أميناً يحق ما فيها من حق،ويبطل ما حرّف أو زيد فيها من باطل .

الدليل السادس : إن هذا القرآن الكريم قد خصه الله تعالى من بين سائر الكتب الإلهية بالإعجاز ، فإن جميع الكتب الإلهية هي كتب دعوة العباد

إلى الله تعالى ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة .

وأما هذا القرآن الكريم فهو كتاب دعوة الله تعالى ، وبيان ما فيه سعادة الإنسان وصلاحه ، وفلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة ، وأيضاً فهو كتاب إعجاز وحجة وبرهان ، فهو كتاب دعوة وحجة معاً لا ينفكان ،ففيه الدعوة والبيان القائمان على الإعجاز والبرهان ، على مدى العصور وامتداد الأزمان .

ولذلك كانت معجزة القرآن الكريم وحجته هي أكبر المعجزات وأقوى الحجج .

هي أكبر المعجزات التي شهد الله تعالى بها وأعلنها لعباده وأشهدهم إياها بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله ، وهي أكبر معجزة أيده الله تعالى بها وأبقاها حجة له على جميع العالمين إلى يوم الدين .

روى الإمام البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) .

قال المحققون من العلماء : المراد من هذا الحديث أن معجزات الأنبياء السابقين صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين _ قد انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، وأما معجزة القرآن الكريم فهي باقية مستمرة إلى يوم القيامة ، وإن خرقه للعادة ، وإعجازه في أسلوبه وبلاغته في إخباره بالمغيبات ، وفي أحكامه وتشريعه ، وحكمه وعلومه ، ومعارفه ومعانيه ، وعجائبه التي لا تنقضي ، وحججه التي لا

تعارض ولا تناقض ، كل ذلك مستمر فلا تمر في عصر من الأعصار إلا و يظهر فيه من عجائبه ، ومما أخبر به القرآن الكريم أنه سيكون .

فخرقه للعادة بتلك الوجوه المتعددة وبغيرها _ يدل على صحة دعواه ، وصدق الذي أنزل عليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وأنه رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم .

هذا ومن وجه آخر فإن المعجزات الماضية التي جرت مؤيدة للأنبياء السابقين ، كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء الموتى على يد عيسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

وأما معجزة القرآن الكريم فإنها تشاهد بالبصر والبصيرة ، فيكون من يتبعه صلى الله عليه وسلم أكثر ، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، وأما الذي يشاهد بعين البصيرة ويشهد بنور العقل فهو باق ، يشاهده ويشهد به كل من جاء إلى يوم القيامة من العقلاء وأولي البصائر ، قال تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) الآية ، وقال تعالى : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) .

فإنه كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، ولا بسورة من مثله ، يشهد بذلك كل ذي عقل وروية .

وبناء على ذلك فلا يمكن أن يزاد فيه أو ينقص منه ، لأن المزيد فيه ليس بمعجز ، والناقص منه يخل بإعجاز الباقي ، ويخل بتركيبه وأسلوبه ومناسباته ، وبذلك يخرج عن كونه معجزاً ، حجة باقية إلى يوم الدين ، كما أخبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم.

وإن صفة الإعجاز هي صفة ذاتية للقرآن الكريم ، ملازمة له ، من المستحيل أن تنفك عنه ، كما أن صفة العربية ذاتية ملازمة للقرآن الكريم لا يتصور أن تفارقه .

فكما أن الله تعالى جعل القرآن عربياً قال سبحانه : (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) فلا يمكن تجريده عن العربية ، كذلك جعل القرآن معجزاً فلا يمكن تجريده عن الإعجاز ، ولا يتصور القرآن بحال من الأحوال غير معجز ، كما لا يتصور القرآن بحال من الأحوال غير عربي قطعاً .

وهذا الجعل المتقدم ذكره ليس تخليقياً ، بل هو جعل التقدير والتصيير ، فإن القرآن الكريم غير مخلوق أصلاً ووصفاً .

ومن هذا كله يتبين للعاقل جلياً أنه لا يمكن أن يجري على هذا القرآن الكريم تحريف أو زيادة أو نقص ، فإنه لو أمكن أن يجري ذلك لكانت هذه المعجزة الكبرى التي أبقاها اله تعالى حجة على العباد إلى يوم الدين مصدقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم _ لكانت تلك الحجة غير موثوقة ولا مضمونة ولا مصونة ، بل يدخلها الدخيل وتتسرب إليها الأباطيل والأضاليل ، إذاً فأي حجة له صلى الله عليه وسلم ، وأي بينة له باقية بعده ، تثبت بالقرآن الذي هو معرَّض للتحريف والزيادة والنقص _ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

كلا بل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله تعالى إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً) .

الدليل السابع : إن القرآن العظيم هو الأصل الأصيل ، والركن الركين في الشريعة المحمدية المشتملة على القضايا الإيمانية ، والأحكام العملية

والقولية ، والأمور التعبدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد جاءت السنة الشريفة النبوية المشتملة على أقواله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى أفعاله وتقريراته : بياناً للقضايا الإيمانية ، والأحكام العملية ، وسائر الأوامر الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم من ربهم ولعلهم يتفكرون) .

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء في القرآن الكريم من العقائد الإيمانية ، وبين ما جاء به أيضاً من الأحكام والأوامر والمناهي ، والحلال والحرام ، إلى ما وراء ذلك من أحكام الشريعة .

فلو جاز أن يجري على القرآن الكريم تبديل أو زيادة أو نقص لأدى ذلك إلى وقوع الخلل والعبث في الشريعة المحمدية الواجب اتباعها ، والعمل بها إلى يوم القيامة .

ولو جاز أن يجري على القرآن الكريم شيء من التحريف والتبديل ، والزيادة والنقص لأدى ذلك إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، والنقص من الأوامر والمناهي ، التي جاءت في القرآن الكريم .

ويخرج حينئذ عن كونه شرعاً حكيماً مصوناً موثوقاً ، يجب التمسك به إلى يوم القيامة ، لأنه حينئذ قابل للتبديل والزيادة والنقص في كل آن وزمان ، بل في كل ساعة ودقيقة .

بل لو جاز على القرآن تبديل أو زيادة أو نقص لأدى ذلك إلى وقوع الخلاف بين البيان والأصل المبيّن ، فإن البيان المحمدي الوارد في سنته الشريفة هو بيان الأصل ، أصيل نازل من عند الله تعالى وهو القرآن الكريم ، النازل عليه صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أجرى على القرآن

تبديل أو تغير في نصوصه ، اختلف البيان المحمدي مع الأصل القرآني الذي بينه قبل لأن يعتريه التغيير والتبديل والزيادة والنقص .

وهذا كله محال شرعاً وعقلاً ، وواقعاً وذوقاً وفطرة ، فإننا نرى أن البني صلى الله عليه وسلم قد أمر وأوصى بالتمسك بالكتاب والسنة معاً إلى يوم الدين ، وأمر العباد بإحلال الحلال وتحريم الحرام الوارد فيها دون أن يحلوا أو يحرموا من تلقاء أنفسهم ، قال الله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) الآية .

جاء في (الموطأ) عن مالك أنه بلغه صلى الله عليه وآله وسلم قال :

((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم)) .

وروى الحاكم نحو هذا في (المستدرك) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودَّع فقال :

((أنا محمد النبي الأمي ـ ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ، وتجوّز بي وعرفت وعرَّفت أمتي ، فأسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا حلاله وحرموا حرامه)) .

وروى الطبراني بإسناد جيد عن أبي شريح الخزاعي قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ((أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟)) قالوا : بلى .

قال : ((إن هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ،

فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً)) .

وروى الطبراني بسند رواته ثقات عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ((أطيعوني ما كنت بين أظهركم ، وعليكم بكتاب الله تعالى ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه)) .

فلو جاز أن يجري على القرآن تحريف في كلمة أو زيادة أو نقص لأدى ذلك إلى وقوع الخلل في هذه الشريعة المحمدية ، التي كلف الله تعالى العباد أن يتمسكوا بها إلى يوم القيامة ، فلا بد وأن هذا القرآن محفوظ ، وأن هذه الشريعة المحمدية محفوظة باقية بتمامها إلى يوم الدين كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : ((تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك)) رواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) بإسناد حسن ، ورواه غيره أيضاً بأسانيد متعددة .

الروح القرآني وتأثيره في القلوب والنفوس

إن من أقوى البينات الدالة على أن هذا القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وأنه كلام رب العالمين ، أنزله على سيدنا محمد رسول الله الصادق الأمين ، أنه جاء بروح من أمر الله ليسرى في قلوب العباد ، بحيث أنهم يشعرون بتأثيره وفعاليته وذوق حلاوته وطلاوته ، فيعرفون الحق واضحاً جلياً ،

فبعد ذلك : منهم المقر المعترف بما عرف ، ومنهم المنكر الجاحد للحق عناداً بعد ما عرف _ كبراً ، أو عصبية جاهلية .

قال الله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الآية .

ومن المعلوم بداهة أن من شأن الروح وفعاليتها أنها تعطي الحياة لمن سرت فيه .

فهناك الروح الإنساني الذي تحيا به الأجساد قال تعالى : (ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، والمعنى: أن الروح الإنساني من عالم الأمر الرباني اللطيف ، الذي به حياة جسم الإنسان ، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متوكئ على عسيب ، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فقال بعضهم : ما رابكم إليه ؟ ، وقال بعضهم : لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه ، فقال : سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي ، قال : (ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي) الآية .

فالروح المسئول عنها في هذه الآية هو الروح الإنساني ، يدل على ذلك رواية ابن عباس رضي الله عنهما : أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن الروح ، كيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من أمر الله ، فنزلت : (ويسألونك عن الروح) الآية .

وأيضاً فإن اليهود لم يقصدوا بذلك الروح الجبريلي ، لأنهم يعادونه

ويبغضونه ، ولم يقصدوا الروح القرآني لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم ، فلم يبق لهم مقصود من السؤال إلا الروح الإنساني الذي يحيا به جسم الإنسان .

وأما الروح القرآني فهو المراد في قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وهذا الروح به تحيا الأرواح الإنسانية ، وبه تحيا القلوب التي هي أبواب الاتصال بين الأرواح والأشباح .

فأمر هذا الروح القرآني أعظم من الروح الإنساني ، وشأنه أكبر ، ولذلك جاء ذكره غير معرّف تعظيماً وتفخيماً ، قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) أي : روحاً عظيماً قويّ التأثير والفعالية ، تعطيكم حياة إيمانية تسعدون بها سعادة الأبد ، قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الآية .

يعني : أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءكم بالروح القرآني الذي به حياتكم السعيدة .

فإذا سرى روح القرآن في قلب الإنسان دبَّت فيه الحياة الإيمانية ، ما لم يعرض صاحب القلب عما سرى في قلبه ولم يتعام عن ذلك ويصم تكبراً وتجبراً ، أو يشغل عنه قلبه متبعاً لأهواء نفسه ، متمسكاً بضلالها وغيها ، فحينذاك يطبع بالكفر على القلب ، ويزيغ وينغمس في الغفلات ، ويحجب بها فلا تسري فيه الحياة .

فمن أعرض عن ذلك الروح القرآني واستكبر طبع على قلبه الكفر ، قال تعالى : (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر وجبار) ، وقال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم

يعمهون) .

وقال تعالى : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولىَّ مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم) .

وقال تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) .

وقال تعالى : (فلما زاغوا ، أي : مالوا عن الحق الذي جاءهم وأعرضوا عنه _ (أزاغ الله قلوبهم) .

وقال تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) لأنه فرَّط بالحياة وضيعها .

وقال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) الآية .

وقد بين الله تعالى لعباده قوة سريان القرآن الكريم في القلوب وتأثيره فيها ، وكيف حال الكفار المعاندين المعرضين تكبراً ، وكيف موقفهم من تأثير القرآن وفعاليته في قلوبهم :

قال الله تعالى : (كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) .

وقال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك نسلكه) _ أي القرآن ندخله _ (في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) .

فقد أخبر سبحانه أنه يسلك هذا القرآن أي يدخل روحه في قلوب المجرمين ، فهي تتحرك وتهتز له ، فيعرفون حقيته ويذوقون حلاوته ، ويطعمون طلاوته ، ولكن يجحدون ولا يؤمنون ، ويعرفون ولا يعترفون ، عناداً وكبراً ، واتباعاً لأهوائهم الفاسدة .

قال تعالى : (وقد خلت سنة الأولين) أي : مضت سنة الله تعالى في الأمم السابقة أنهم لما أعرضوا عن قبول الحق بعد ما تبين لهم ،أخذهم بأنواع العذاب كقوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم صالح ، وغيرهم .

ثم بيَّن سبحانه شدة معاندة الكفار ومعارضتهم للحق بعد ما تبيّن لهم ، وسوء كبرهم وجحودهم للحق بعد ما عاينوه وأبصروه ، جلياً ساطعاً ، وأن ذلك هو رأيهم وشأنهم فقال تعالى : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون) _ أي : يصعدون فيه صعوداً محسوساً مشهوداً ، وانتهوا إلى السماوات ، وشاهدا ما فيها من الآيات وعجائب المخلوقات بأعينهم ثم سئلوا ، ماذا ترون ؟ : (لقالوا : إنما سكرت أبصارنا) أي : أطبقت أبصارنا وأغلقت ، فما نرى شيئاً ما _ في حين أنهم يرون بأعين مفتحة ، ولكن لا يعترفون بأنهم يرون بل ينكرون ، فإذا غلبوا في الحجة عليهم بأنهم يرون ، وكيف ينكرون ما يرون ؟ ! قالوا : (بل نحن قوم مسحورون) _ أي : نحن نرى ، ولكن من باب السحر والتخييل ، لا من باب الحق والحقيقة ، كل ذلك بسبب عنادهم وجحودهم وكبرهم وعتوهم عن قبول الحق بعد ما رأوه .

وقد ذكر الله تعالى لنا وقائع متعددة عن الكفار المعاندين ، وعن جحودهم

وكبرهم لما سمعوا القرآن الكريم وسرى روحه في قلوبهم ، فتحركت وبشت له قلوبهم ، وذاقت حلاوته وطلاوته ، وأبصروا ببصائر قلوبهم نور الحق الذي جاء به القرآن الكريم _ راحوا يعاندون فينكرون ويجحدون بعد ما عرفوا الحق ، وراحوا يهزءون ويعرضون عن الحق بعد ما تبين كما قال الله تعالى في الوليد بن المغيرة :

(ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلاّ . إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . أنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) .

قال الإمام البغوي : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) إلى قوله تعالى : (إليه المصير) قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، والوليد بن المغيرة قريب منه صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد إلى مجلس قومه بني مخزوم . فقال : والله ، لقد سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلاماً آنفاً ـ أي : الآن ـ ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه لي

علو ـ أي : فوق

كل كلام ـ ولا يعلى عليه .

فقالت قريش : صبأ والله أبو الوليد ـ أي : رجع عن دين قومه وآبائه وهو عبادة الأصنام ـ والله لتصبأن قريش كلهم .

فقال أبو جهل : أكفيكموه ـ فقعد إليه حزيناً ، وكلمه بما أحماه.

فقام الوليد فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً _ صلى الله عليه وسلم _ مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ .

فقالوا في كل ذلك : اللهم لا .

ثم قالوا : فما هو ؟

ففكر فقال : ما هو إلا ساحر ، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل ـ فارتج النادي فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه ا هـ .

قال ابن جرير في رواية ذلك عن عكرمة : فأنزل الله تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهوداً) إلى قوله تعالى : (عليها تسعة عشر) .

فلقد سرت روح القرآن في قلب الوليد ، وذاق حلاوته ، وتبشبش له قلبه ، ثم عاند وعارض وتكبر وتجبر ؛ فجحد وأنكر .

وهكذا أبو جهل وأشباهه كلهم عرفوا حقية هذا القرآن الكريم ، وذاقوا حلاوته بقلوبهم ، وعرفوا صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي الله تعالى ورسوله ، ولكن لم يعترفوا بذلك ولم يذعنوا ، كبراً وتعصباً جاهلياً .

قال الإمام محمد بن إسحاق في السيرة :

حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدّث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو ابن وهب الثقفي حليف بني زهرة _ خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته .

فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق _ أي :حين عادوا إلى بيوتهم_تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاَ ، ثم انصرفوا_أي : إلى بيوتهم _ .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ،فباتوا يستمعون له صلى الله عليه وسلم ، _ أي :لأن روح القرآن جذبت قلوبهم فأرغمهم أن يعودوا ويستمعوا ، لما ذاقوا من الحلاوة _ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة،ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له صلى الله عليه وسلم ، حتى طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود _ فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال له : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ صلى الله عليه وسلم .

فقال : يا أبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت

أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا الذي حلفت به _ أي : مثلك _ .

ثم خرج الأخنس من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال له : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ صلى الله عليه وسلم _ .

فقال أبو جهل : ماذا سمعت ! ! أي : سمعت كلاماً عظيماً حكيماً ليس من كلام البشر وإنما هو كلام رب البشر نازل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هناك المانع التعصبي الجاهلي الذي يحول دون الاعتراف بذلك والإذعان إلى ذلك .

ثم بيَّن أبو جهل ذلك فقال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف _ أي : صار كل منا ينافس الآخر ويتعالى عليه بالشرف _ فأطعموا _ أي : بنو عبد مناف _ فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان _ أي : متساوين في المفاخر _ قالوا _ أي بنو عبد مناف _ : منا نبي يأتيه الوحي من السماء _ أي : نحن نفخر ونعلوا على غيرنا بالشرف والفضل بسبب أن الله تعالى بعث منا نبياً يوحى إليه ، وهذا شرف وفضل لا يعادله شيء .

قال أبو جهل : فمتى ندرك هذه ؟ أي : فمن أين نأتي بنبي حتى ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوى معهم ؟ .

قال أبو جهل : والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه _ أي : وإن كان نبياً حقاً حتى لا تفتخر عليهم بنو عبد مناف .

ولو أن أبا جهل تعقل لآمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن عرف

أنه رسول الله حقاً ، وبإيمانه بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم يدخل تحت راية

شرفه صلى الله عليه وسلم ، ويستظل بظل لواء مجده الرفيع صلى الله عليه وسلم ، ولكن العصبية الجاهلية أعمت قلبه وأظلمت عليه عقله _ أعاذنا الله تعالى من ذلك آمين .

وروى الحافظ ابن كثير عن الإمام محمد بن إسحاق بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة _ وكان سيداً في قومه _ قال يوماً _ وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده _ : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ _ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون _ .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه ،

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي إنك حيث علمت من البسطة في العيش والمكان في النسب _ أي : أنت المعروف في النسب والحسب والمكانة العلية والرتبة العصباء _ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل : يا أبا الوليد أسمع) قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلبت الطابع على الرجل حتى يداوى منه _ يريد بذلك الجن _ .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه .

فقال له صلى الله عليه وسلم : (أفرغت يا أبا الوليد ؟) قال : نعم .

قال : (فاستمع مني) قال : أفعل .

فقال صلى الله عليه وسلم :

(بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد ، ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك).

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ .

قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه _ فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

وقد روى هذه القصة الحافظ أبو يعلى ، وعبد بن حميد في مسنديهما نحو ذلك .

روى الطبراني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) .

قال ابن عباس : إنهم كانوا قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم) ؟

فقالوا : لن ننتقل عن ديننا _ فأنزل الله مخبراً عن قولهم : (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين).

وروى البخاري وغيره عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) الآيات ، كاد قلبي أن يطير _ وكان ذلك سبب إسلامه بعد .

فبالروح القرآني تحيا الأرواح والقلوب حياة إيمانية ، فهناك يخصب بلد القلب بالخيرات ، ويأتي بالثمرات العملية والقولية ، فيصير بلداً طيباً ،

وربيعاً مرتعاً ، وكرماً يانعاً يافعاً ، لأن القرآن الكريم صار ربيعه .

روى الإمامان الترمذي وأحمد وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك) إلى قوله : (أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي) الحديث كما تقدم .

وقال الله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار إبتغاء حلية أو متاع زبداً مثله فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .كذلك يضرب الله الأمثال) .

فقد ضرب الله تعالى مثلاً لسيران الروح القرآني في القلوب وتأثيره فيها بنزول الماء المتدفق من السماء على بطون الأودية ، وفعاليته فيها الخصب والخضار والنضار ، والخيرات والثمرات فالقلوب المؤمنة هي أودية القرآن ، وحديقة الفرقان ، وبستانه وكرمه .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم قلب المؤمن) .

فبسماع كلام الله تعالى تتفتح القلوب ، وتنتعش الأرواح ، وتتنشط النفوس ، وتنهض العقول ، ولذلك أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبذل جهده في إسماع المشركين كلام الله تعالى ، فقال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك) _ أي : طلب منك الأمان ، وهذا عام لمشركي العرب والعجم ـ (فأجره حتى يسمع كلام الله) وإن لم يفقه تمام معناه ، فإن له روحاً سارية ، وحلاوة إلى القلب جارية ، وتذكرة لمن له أذن

واعية .

فأمر صلى الله عليه وسلم أن يسمعهم كلام الله تعالى ولو لم يفهموا معانيه ، لأن كلام الله تعالى له روح فعالة في القلوب ، كما تقدم في قول أبي سفيان وغيره : وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها أي : ومع ذلك أثرت في قلبه وذاق حلاوتها .

وأما أهل القلب السليم والعقل القويم فإنهم إذا سمعوا القرآن الكريم اهتزت له قلوبهم ، وسرى فيها روح القرآن الكريم ، ودبت فيها الحياة ، وبشت له القلوب وآمنوا به ، كما وصفهم الله تعالى في قوله : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أي : فاكتبنا مع الشاهدين من أتباع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، الذين يشهدون يوم القيامة على الأمم قبلهم .

النور القرآني وإضاءته على العقول والقلوب

إن للقرآن نوراً يشرق على القلوب فيبصرها ، وعلى العقول فينورها ، ثم يسري ذلك في جميع الحواس الفكرية والسمعية والبصرية والمدارك الإنسانية ، فيهتدي الإنسان إلى طريق الحق الثابت بالبينات ، قال الله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير) .

وقال تعالى يمدح المتبعين هذا النور : (فالذين آمنوا به) _ أي : برسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم _ (وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) أي : هم أهل الظفر بالبغية والنجاح في المقصود ، والفائزون بالمطلوب هم ولا غيرهم .

وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا) .

وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) .

ومن المعلوم قطعا أن نور البصر وحده يريك النور ، ويريك الظلمة ، ولكن لا يريك الأشياء المادية والمرئية إلا بنور آخر خارجي فيلتقي نور البصر مع نور خارجي فترى الأشياء وتنكشف لك الأمور .

وأما إذا كنت في ظلمة فلا ترى بنور بصرك وحده غير الظلمة فأنت والأعمى سواء في تلك الحالة ، لأن نور البصر وحده لا يكفيك في التهدي إلى رؤية الأشياء وتمييزها .

فكذلك العقل هو نور منحه الله تعالى العاقل فهو يعرّف العاقل ويميّز له بين النور الذي يهدي إلى الحق وبين الظلمة التي تلقي صاحبها في الضلالات والمتاهات ، ولكن لا يميز بين الصلاح والفساد ، وما ينفعه وما يضره ، وما يسعده وما يشقيه ، وما فيه خيره وشره ، إلا إذا مشى نور عقله على نور الحق النازل من عند الله تعالى وهو وحي الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم : كتابه وسنة رسوله الكريم ، فبذلك يهتدي إلى معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة ما فيه الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والنفع والضر .

فيلتقي نور العقل مع نور وحي الله تعالى النازل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيهتدي ولا يضل ، ويسعد ولا يشقى ، ويصلح ولا يفسد ،

ويمشي سوياً على صراط مستقيم ، يوصله إلى رب العالمين ، وإلى هذا كله يشير قوله تعالى : (ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور) _ اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنيا فيمن عافيت .

فإذا سمع الإنسان العاقل هذا القرآن وأنصت له ، وأنصف معه ، أشرق قلبه واستنار عقله ، وتجلت له أنوار الحكمة الإلهية وأسرار المعارف الربانية ، وهذا مما يحمله على الإذعان للحق الذي جاء به ، والاهتداء بنوره إلى السلوك على الصراط المستقيم ، فيمشي عليه سوياً وهو على بصيرة من أمره وبينة من سيره ، قال تعالى : (قل : هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

ومن هذا إسلام عثمان بن مظعون ، وأكثم بن صيفي ، وغيرهما ممن لا يحصيهم التعداد :

روى الإمام أحمد بإسناد جيد متصل حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم _ أي ضحك وأبدى أسنانه _ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ألا تجلس ؟) أي : لتسمع مني ، فقال : بلى .

فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله ، فبينما هو صلى الله عليه وسلم يحدثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء

_ أي : بسبب أن الوحي صار ينزل عليه ، صلى الله عليه وسلم فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرَّف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره _ أي : عن يمينه _ فأخذ ينغض رأسه _ أي : يحركه _ كأنه يستفقه _ أي : يستفهم _ ما يقال له ، وابن مظعون ينظر ، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء ، فأقبل صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن مظعون بجلسته الأولى .

فقال عثمان : يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة .

فقال صلى الله عليه وسلم : (وما رأيتني فعلت ؟) .

قال عثمان : رأيتك تشخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك .

فقال صلى الله عليه وسلم : (وفطنت لذلك ؟) فقال عثمان : نعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتاني رسول الله _ أي : جبريل عليه السلام _ آنفاً _ الآن _ وأنت جالس) .

قال عثمان : رسول الله _ أي : جبريل _ أتاك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (نعم) .

قال عثمان : فما قال لك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : قال : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) .

قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم [١٩] _ أي : وذلك لإشراق أنوار حكم هذه الآية الجامعة لمجامع الخير كله ، والمحذرة من ألوان الفساد والشر كله ، فاستنار بها عقله ، وانفتح لها قلبه ، وانشرح لها صدره .

ومن ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة بإسناده المتصل أن أكثم بن صيفي لما بلغه مخرج النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه _ أي : يتركوه _ وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه ، قال : فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان _ وروي أنهما ولداه _ فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك : من أنت ، وما أنت ؟ وفي رواية : وبم جئت ؟ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أما : من أنا ؟ فأنا : محمد بن عبد الله ، وأما : ما أنا ؟ فأنا : عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) .

فقالا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه .

فأتيا أكثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه ذاكي النسب وسطاً في مضر _ أي أشرفهم وأمجدهم _ ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى

---

[١٩] انظر المسند وتفسير ابن كثير 2 : 583 .

عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً _ أي : أسرعوا إلى الدخول في دين هذا الرسول صلى الله عليه وسلم تكونوا رؤوساً سادة وقادة _ ولا تكونوا فيه أذناباً .

ولقد كان أكثم من الأذكياء الفطناء ، فلما سمع هذه الآية الكريمة أشرق قلبه بأنوار حكمتها ، واستضاء عقله بمجامع خيرها وآدابها ، فاعتبرها وتدبّرها فتذكّر المحاسن والمكارم التي انطوت فيها ، فأسلم وأسلم قومه ، فكان مما قال فيهم سبحانه في آخر الآية : (لعلكم تذكرون) .

ومن ذلك ما رواه البيهقي في الدلائل وكذلك أبو نعيم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه ، وكان أبو بكر رجلاً نسَّابة _ أي خبيراً بأنساب العرب _ فوقف على منازلهم ومضاربهم في منى فسلم عليهم وردوا السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وابن هانئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر _ مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :إلى مَ تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله ، وأن تؤوني وتنصروني ، وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به ، فإن قريش قد تظاهرت على أمر الله تعالى ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني

الحميد) .

فقال له مفروق : وإلى مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) _ إلى قوله _ (تتقون) .

فقال له مفروق : وإلى مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) الآية .

فقال له مفروق : دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانئ بن قبيصة : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به .

ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم لم تلبثوا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم _ يعني أرض فارس _ ، وأنهار كسرى ، فعليكم أن تسبحوا الله وتقدسوه) .

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش .

ونعوذ بالله من حاسد إذا حسد ، ومن حاقد إذا انتقد ، ومن جاهل إذا اعترض ، ومن مبغض إذا امتعض .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن أجمع آية في القرآن _ هذه الآية ، وذلك لأن الله تعالى يأمر فيها بمكارم الأخلاق ومعاليها ، وينهى عن ملائمها وسفسافها .

وقد ورد في الحديث الذي رواه الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى يحب معالي الأخلاق وأشرافها ، ويكره سفسافها) .

وفي رواية الحاكم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها).

وقد يقول القارئ الكريم لو أنك فصَّلت لنا الكلام على هذه الآية ، وكونها أجمع آية كما قال ابن مسعود رضي الله عنه .

فيقول عبد الله : إن تفصيل الكلام على هذه الآية الكريمة يتطلب كتاباً مستقلاً ، ولكن لا بد من كلمة مجملة حول جانب من جوانبها فأقول :

إن هذه الآية الكريمة جمعت مجامع الفلاح والصلاح والنجاح في الدين والدنيا ، والآخرة والأولى ، كما أنها قمعت وسدت ثغور الفساد والضلال والشرور .

وقد قرأ الحسن البصري رضي الله عنه هذه الآية يوماً : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية إلى تمامها ، ثم وقف فقال :

إن الله تعالى قد جمع لكم الخير كله ، والشر كله في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عز وجل إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله تعالى شيئاً إلا جمعه ا هـ .كما في (الحلية) .

فجاءت الآية تبين أن الله تعالى يأمر بالعدل المطلق ، والإطلاق يشمل ويعم ، فيدخل تحت عمومه : العدل بالنسبة لموقف العبد مع ربه سبحانه ، والعدل بالنسبة لموقفه مع نفسه ، والعدل بالنسبة لموقفه مع مخلوقات الله

تعالى .

أما الموقف الأول : فإن العدل يوجب على العبد أن يكون موقفه مع الله تعالى رب العالمين موقف الموحد اعتقاداً وعبادة ، فإن هذا رأس العدل ومصدر العدل ، وهو العدل فوق كل عدل ، ولذلك قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل) الآية قال : (إن الله تعالى يأمر بلا إله إلا الله) .

نعم لأن كلمة لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، وتوحيد الله تعالى هو العدل القويم ، والشرك بالله ظلم ظليم ، قال تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) ، وقال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبثوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) جاء في الحديث أن المراد بالظلم في هذه الآية هو الشرك .

فالتوحيد هو العدل ، والشرك هو الظلم ، فإن اعتراف العاقل وإثباته الحق لصاحب الحق هو عدل ، وأما إنكاره الحق وإثباته لغير صاحبه فهو ظلم .

فإيمان الموحد وإثباته الألوهية لله تعالى وحده هو العدل القويم ، لأن إثبات الحق لمن له الحق ، فإن الله تعالى هو الرب الخالق البارئ المصور الرزاق المدبر ، فإثبات الألوهية له وحده هو العدل ، لأنه اعتراف وإقرار بالحق لصاحبه .

وأما إثبات الألوهية لغير الله تعالى فهو وضع الشيء في غير موضعه المستحق له ، وهذا ليس من العدل بل هو الظلم العظيم ، وهذا ليس من الحكمة في شيء بل هو العبث والفساد والضلال ، فإن الرب الذي هو يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت هو الإله الذي يعبد حقاً ، وأما من لا يملك من ذلك شيئاً فإنه لا حظ له في الألوهية قال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا

يخلق أفلا تذكرون) .

فإعطاء المشرك الألوهية لغير الله تعالى _ هو ظلم عظيم صدر عن ظالم لنفسه وظالم في حكمه ، وظالم في أقواله وأفعاله ، فأي ظلم أعظم من ذلك.

وأما الموحد فهو العادل في توحيده ، والعادل في اعتقاده ، والعادل في عباداته لربه ، والعادل في حبه لربه ، وفي إرضائه وقربه وتعظيمه لربه ، وحمده وتسبيحه وتكبيره ودعائه ربه .

فإن الموحد أيقن أن الإله واحد لما ثبت بالدليل القطعي ، والذوق الفطري ، فتوجه الموحد بكليته إلى ذلك الإله الواحد في عبادته له ، وثنائه عليه ، وفي دعائه ، ومحبته له ، ورهبته منه ، ورغبته فيما عنده ، ومخافته منه ، ومراقبته له .

وأما المشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر فهو على ظلمه العظيم في جعله مع الله إلهاً آخر _ علاوة على ذلك لو أنه طولب أن يعدل بين الإلهين بأن يحبهما على السواء ويعظمهما على حدٍ سواء ، ويعبدهما على حدٍ سواء ، ويحمدهما ويثني عليهما على حدٍ سواء ، وأن يدعوهما ويتضّرع إليهما على حدٍ سواء ، أو يراقبهما على حد سواء _ لو أنه طولب بذلك لما استطاع ، بل لا بد أن يميل إلى احدهما أكثر من الآخر ، فهو ظالم في إشراكه ، وجعله من ليس بإله _ إلهاً ، وهو ظالم في معاملته لهما ، وإلى هذا كله يشير قوله تعالى منبها للعقلاء : (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون) ـ أي : فإياي فارهبون ، وأحبوني ، واحمدوني ، وادعوني ، وراقبوني ، فإن ذلك مستطاع لديكم ، فالحمد لله

رب العالمين (وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذّل وكبرَّه تكبيراً) الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا .

فالإشراك بالله تعالى ظلم عظيم ، ليس بمرضي شرعاً ، ولا مقبول عقلاً .

جاء في حديث الحارث الأشعري الذي رواه الترمذي وغيره وفيه :

قال يحيى بن زكريا ، عليهما السلام لبني إسرائيل وقد جمعهم في بيت المقدس وامتلاء بهم حتى جلسوا على الشرف ، وذلك ليبلغهم ما أمرهم الله تعالى به فقال لهم :

(إن الله تعالى أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك ـ أي : مثل من أشرك بالله تعالى ـ كمثل رجلاً اشترى عبداً من خالص ماله : ذهب أو ورق ـ أي : فضة ـ فقال له ـ أي : قال الرجل المالك : لعبده الذي اشتراه ـ هذه داري وهذا عملي ، فعمل وأدّ إليّ ، فكان هذا العبد يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك) الحديث .

فعبد يعيش في دار مولاه ، ويأكل من رزقه ، ويرتع في رحابه ، ويتمتع بنعمه ، إذا عمل وأدىّ عمله لغير مولاه ـ إنه لظالم حقاً ، وليس بعادل أصلاً .

وأما عدل الإنسان مع نفسه فإن للنفس على صاحبها حقاً ، وذلك بأن لا يعرّضها إلى ما يضرّها في دينها أو دنياها .

فلا يلقي بنفسه في المعاصي فيكون ظالمها غير عادل ، ومن ثمّ وصف الله تعالى المخالف لأوامره سبحانه أو المرتكب لما نهى عنه وصفه بأنه ظالم نفسه :

قال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) .

وقال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) الآية .

وقال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) .

وقال تعالى : (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) .

كما أن من الحق لنفسه عليه أن لا يحملها من العبادات النافلة فوق طاقتها حتى يقعد بها فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

(ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقوم الليل) ـ أي : كله ـ ؟

قلت : بلى يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم : (فلا تفعل ، صم أفطر ، ونم وقم فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك _ أي : ضيفك _ عليك حقاً) الحديث .

كما أن من حقها عليه أن لا يحرمها طيبات ما أحل الله تعالى له ، بأن يحرم ذلك على نفسه قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

وقال تعالى : (قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) الآية .

وأما ما ورد عن السلف الصالح رضي الله عنهم من إمساك النفس عن بعض المباحات والطيبات شرعاً ، فذلك من باب الحمية المؤقتة ، ومن

القواعد الطبية المقررة : الحمية رأس كل دواء ، وعوَّدوا كل جسم ما اعتاد . ا هـ

وليس ذلك من باب تحريم المباحات والطيبات كما يتوهمه بعض الجهلة ، فإن أهل الله تعالى هم أشد تمسكاً بشريعة الله تعالى .

وأما العدل مع المخلوقات فهو إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم ، وهذا باب واسع تدخل فيه الأقوال قال تعالى : (وإذا قلتم فاعدلوا) فيشمل الحكم والقضاء ، والذم والثناء ، وتدخل فيه الأفعال : فتشمل البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وجميع القضايا التجارية ، والمعاملات المالية .

ويدخل في ذلك حقوق الآباء والأمهات ، والأبناء والأقرباء ، والجيران ، وحقوق سائر بني الإنسان كما يدخل تحت ذلك حقوق الحيوان فيعامل بالرفق ، ولا يحمل فوق طاقته _ إلى آخر ما هنالك .

وأما الإحسان المأمور في الآية الكريمة فهو يشمل إحسان المعاملة مع الخالق جل وعلا ، ويشمل إحسان المعاملة مع المخلوقات .

أما إحسان المعاملة مع الله تعالى : فهو إحسان عبادته ، والدوام على مراقبته ، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم وقال له :

(فأخبرني عن الإحسان) .

فقال صلى الله عليه وسلم : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وجاء في رواية لمسلم (أن تخشى الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) الحديث .

وذلك باستحضار العبد مقام القرب ، وأنه أمام جناب حضرة الرب سبحانه ، مشاهداً له كأنه يراه ، فإن لم يستطع ذلك فليراقب أن الله تعالى يراه .

كما أن من إحسان المعاملة مع الله تعالى أن يكون المسلم في سائر أموره مع الله تعالى بالصدق والإخلاص له ، والإقبال عليه سبحانه .

وأما الإحسان مع المخلوقات : فهو يشمل الإحسان بالقول : قال تعالى : (وقولوا للناس حسناً) ، وإحسان الأعمال وهذا يتطلب الإحسان إليهم حسب ما يقتضيه الموقف معهم:قال الله تعالى:(وأحسنوا إن الله يحب المحسنين).

وروى الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا حكمتم فاعدلوا ، وإذا قتلتم فأحسنوا ، فإن الله محسنٌ يحب المحسنين) .

بل إن من شريعة دين الإسلام الإحسان في كل شيء ، وإلى كل شيء ، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) .

وهذا الحديث كما نقل العلامة المناوي وغيره عن السلف الصالح : أنه من قواعد الدين ودعائمه .

فالله تعالى كتب : أي : شرع فالكتابة تشريعته _ الإحسان على كل شيء فتدخل : الأقوال ، والأفعال ، والأخلاق ، والمعاملة ، والمعاشرة ، والمجاورة ، وتشمل الإحسان إلى بني الإنسان ، وأنواع الحيوان .

وإن تفصيل الكلام على بقية معاني الآية الكريمة له موضع آخر إن شاء

الله تعالى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين _ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب أن يحمد ويرضى .

وقد تم الجزء الأول ، وسيتبعه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى بحول الله تعالى وقوته .

وصلى الله العظيم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، وعلينا ، وعلى والدينا ، والمسلمين أجمعين _ صلاة وسلاماً دائمين بدوام ملك الله الكريم _ آمين _

المحتويات

المقدمة _ وفيها بيان أن هذا الدين الإسلامي قائم على الحجج والبراهين 5

بيان أن الخطابات الإلهية والتكاليف الشرعية موجهة للعقلاء البالغين 6

قصة المنذر بن ساوى مع سيدنا العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه 8

القرآن الكريم كتاب هدي ودعوة إلى منهج الحق مع الحجج والبينات:12

1_ بيان أن القرآن الكريم نزل ليعقله العقلاء وجاء هادياً للناس إلى العقائد السليمة 12

بيان أنواع البينات الإلهية في القرآن الكريم 18

2_ القرآن الكريم جاء ينادي العقلاء إلى التذكر بذكرياته والتبصر ببصائره ويحذر من الغفلة والعماوة 23

ذكر أصناف الناس بالنسبة للتذكير القرآني 25

3ـ القرآن الكريم يعلن أنه جاء بالبرهان والنور ويتحدى كل من تحدثه

نفسه بالمعاندة أو المعارضة 26
4_أمر الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجاهد بالقرآن الكريم 28
5_خاطب الله تعالى العباد من قبل عقلائهم 30
6_وصف الله تعالى القرآن الكريم بالحكمة والعزة _ وهذا يعني وضوحه في الحجة وقوته فيها 33
7_سمَّى الله تعالى القرآن الكريم فرقاناً وهدى ودعا الناس إلى التفكر فيما جاء به.....37
8_ القرآن الكريم جاء يرسم أقوم وأقوى خطة في الدعوة إلى الله تعالى 40
بيان الأمور التي تستلزمها المجادلة بالتي هي أحسن 44
قصة إسلام رفاعة بن رافع ومعاذ بن عفراء 45
قصة إسلام الحصين رضي الله عنه 46
الواجب المحتم على كل عاقل أن يؤثر كتاب الله على كل كتاب سواء..52
منهج القرآن الكريم في دعوته وهديه للناس وبيان الدليل على ذلك 60
بيان التوافق بين قوله سبحانه : (هدى للناس) وقوله تعالى : (هدى للمتقين) 67
القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم وذكر دليل ذلك 70
القرآن الكريم جاء ببينات من الهدى 72
القرآن الكريم جاء بالفرقان 72
ذكر الشواهد من القرآن الكريم الدالة على الإيمان بالله تعالى 73

ذكر بينات القرآن الكريم على الإيمان بالله تعالى 76
هدي القرآن الكريم إلى توحيد الله تعالى 79
تفسير قوله جل في علاه : (إن في خلق السموات والأرض) الآية جملة
جملة بشكل مختصر واضح بيَّن 79
الكلام حول قول الله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفيه الرد على من يزعم تعدد الآلهة وبيان بطلان ذلك بشكل مفصل لا مزيد عليه 88
هدي القرآن الكريم إلى الإيمان بأن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم 94
ذكر بينات القرآن الكريم التي تثبت قطعاً أن سيدنا محمداً هو رسول الله
صلى الله عليه وسلم 95
الكلام على بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم 97
ذكر بعض ما تضمنته آية : (قيل يا أرض ابلعي ماءك) من إعجاز99
بيان الحكمة من افتتاح بعض سور القرآن الكريم بالحروف بشكل مستوفى.....101
الرد على من يقول : القرآن عربي مبين فهل جاء في كلام العرب إطلاق
الحرف الواحد وإرادة كلمة تامة ؟ 108
بيان بعض المراد من قوله سبحانه : (ويتلوه شاهد منه) 115
القرآن الكريم يخبر عن أوصاف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المذكورة في الكتب السماوية السابقة 117
القرآن الكريم يذكر وقائع كبرى فيها خرق للعادة أجراها الله تعالى

معجزة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم 121
القرآن الكريم يرد على من يزعم أن هذا القرآن من تلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامه 126
بيان بعض العلوم التي اشتمل عليها القرآن الكريم 130
القرآن الكريم يرد على من زعم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أخذ هذا القرآن الكريم من الكتب السابقة 136
القرآن الكريم يثبت بالأدلة كفالة رب العزة سبحانه بحفظه في جميع تنزلاته ومن جميع جوانبه 143
أ : حفظ الله تعالى القرآن الكريم في اللوح المحفوظ 144
ب : حفظ الله تعالى القرآن الكريم في طريق نزوله إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم 145
جـ : حفظ الله تعالى القرآن الكريم في قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه له في صدره صلى الله عليه وسلم 147
د : حفظ الله تعالى القرآن الكريم في حال تبليغه صلى الله عليه وسلم وتلاوته على العباد 150
بيان قصة الغرانيق الباطلة 155
إيراد قصة الغرانيق وبيان بطلانها من جميع الوجوه سنداً ومتناً وحالاً ومقالاً مع ذكر الأدلة على ذلك بشكل مفصل وواضح مبين 155
الكلام على قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول) الآية كما دل عليه الكتاب والسنة بشكل لا مزيد عليه 183

هـ : حفظ الله تعالى القرآن الكريم بعد تبليغه صلى الله عليه وسلم وإبقائه مصوناً محفوظاً إلى يوم الدين ـ وهذا يستلزم: 194
1 ـ حفظ حروفه وكلماته كاملة بنصوصها النازلة وذكر دليل ذلك 195
2 ـ حفظ بيان هذا القرآن الكريم وهو السنة النبوية ـ وبيان اعتناء الصحابة رضوان الله عليهم بحفظ سنته صلى الله عليه وسلم وكذلك السلف من بعدهم بشكل مفصل مع الأدلة والأمثلة 200
3 ـ حفظ وإبقاء من يحمل هذا القرآن الكريم إلى يوم الدين وبيان الدليل على ذلك 211
ذكر الأدلة والوجوه التي تثبت حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من التحريف والزيادة والنقص إلى يوم الدين ـ فيه ذكر سبعة أدلة على ذلك مع شرحها وبيانها مفصلة واضحة 219
الروح القرآني وتأثيره في القلوب والنفوس والدليل على ذلك بالشواهد الواقعية ـ وفيه بيان الفرق بين الروح القرآني والروح الإنساني 233
ذكر قصة سماع أبي سفيان وأبي جهل والأخنس لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم سراً وما حل في ذلك 239
ذكر قصة عتبة بن ربيعة مع النبي صلى الله عليه وسلم وقوله حين سمع القرآن منه صلى الله عليه وسلم 241
النور القرآني وإضاءته على العقول والقلوب ـ ذكر أدلة ذلك مع الأمثلة 246
ذكر قصة إرسال أكثم بن صفي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله : من أنت ؟ وما أنت ؟ وما جئت به ؟ 249

الكلام بشيء من التفصيل على أجمع آية في كتاب الله تعالى ألا وهي قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ...) 252

والحمد لله في البدء والختام

وصلى الله وسلم على سيد الأنام

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

* * *

تعريف ببعض كتب المؤلف :

1 ـ تلاوة القرآن المجيد : فضائلها ـ آدابها ـ مطالبها ـ خصائصها .

فيه بيان أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على الحقيقة ، مع ذكر الدليل المفصل على ذلك ، وفيه الحض على تلاوة القرآن الكريم ، في زمن أعرض الناس عنها ، كما بيّن الآداب الظاهرة والباطنة عند التلاوة ، ونشر صفحة من سيرة السلف الصالح في إكثارهم من تلاوة القرآن الكريم ، وأكد التحذير من ترك القرآن الكريم : قراءة له ، وتعلماً وتفهماً لآياته ، وعملاً به ، ثم جمع جملة وافرة من الأحاديث الواردة في فضائل سور وآيات معينة ليكثر المسلم من تلاوتها .

2ـ هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان ـ القسم الأول ـ

هذا الكتاب يعتبر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ويسير في دائرة قول الله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان) ، افتتح الكتاب ببيان أن القرآن الكريم كتاب هدي ودعوة إلى منهج الحق في الحجج والبينات ، وما ينبغي أن يكون موقف المسلم تجاه القرآن الكريم ، ثم فصل منهج القرآن الكريم في دعوته وهديه للناس ، ثم نشر صفحة عن بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ـ هذا بعد إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى وذكر الأدلة القطعية على أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً وصدقاً .

ثم بيّن : حفظ الله تعالى للقرآن الكريم في تبليغه وتلاوته ـ وردّ وبشكل لا مزيد عليه ـ بل بشكل مسهب ومفصل ولأول مرة ـ قصة الغرانيق الباطلة الزائفة ـ هذا وقد ختم الكتاب بذكر الروح القرآني وأثره في القلوب والنفوس مع أبحاث أخرى حول القرآن الكريم تجدها منتشرة في هذا الكتاب القيّم .

3ـ التقرب إلى الله تعالى : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .

وهذا الكتاب أيضاً من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ يسير في فلك قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية . بيَّن فيه الأمة المصطفاة ومراتبها عند الله تعالى ، كما فصل أثر العبادات على المرء المسلم وذكر ما فيها من التخلية من آثار الذنوب وتحليتها بأنوار الطاعات هذا مع بيان الطرق المقربة إلى الله تعالى ، وبيان درجات المقربين ، وكيفية الوصول إلى تلك المقامات العالية ـ شحذاً للهمم وتقوية للعزائم مع ذكر حديث الأولياء والشرح الكامل له .

بالإضافة إلى أبحاث قيمة تجدها منتشرة في الكتاب يحتاج إليها المسلم في يومه وليلته ـ بل ليعتز المسلم بإسلامه ويفخر بإيمانه فيحافظ على إنتمائه لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ـ وقراءة الكتاب أكبر دليل على أن ما فيه أكثر بكثير مما ذكرت فيه ـ .

4 ـ صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال :

أيضاً هذا الكتاب من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ويدور في فلك قول الله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

افتتح الكتاب ببيان الكلمة الطيبة ((لا إله إلا الله)) وثمراتها مع ذكر وجوه من الكلام حول الآية الكريمة : (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ....) الآية ، ثم بيان جملة من العمل الصالح ، والأوقات التي ترفع فيها الأعمال ، وبيان واسطة الرفع ، وبعض موانع رفع الأعمال الصالحة ، وذكر الحكمة من رفع الأعمال ، وشرع حديث إختصام الملأ الأعلى ، ثم بيان باقة عطرة مما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

5 ـ سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة ، خصاله المجيدة .

وهو كتاب نفيس جامع في بيان صفة خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان خصائص تلك الخلقة المحمدية العظيمة ، على وجه مفصل ومرتب ومنقح .

وفيه تحت بيان فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم أربعون حديثاً شريفة من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، ويتبعه بيان واسع لأرجحية عقله

الشريف على سائر العقول البشرية .

وفي فصل مسهب في سعة علمه وكثرة علومه صلى الله عليه وسلم ، كله من الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم .

ثم عرض لبيان أخلاقه العظيمة الرفيعة على وجه التفصيل لكل خصلة خلقية في خاصة نفسه عليه الصلاة والسلام ، ومع أهله وذويه ، وأصحابه جميعهم على مختلف طبقاتهم . وفيه سرد حديث هند بن أبي هالة بطوله ، مع ضبط ألفاظه وشرحها .

ثم عرض لعباداته صلى الله عليه وسلم ، وبيان المنهج الذي رسمه للعابدين . ومن ذلك بيان مفصل لطريقته صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ، وصلاة الضحى ، ودعائه ، ونحو ذلك . ثم تناول الكلام عن نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، ومولده صلى الله عليه وسلم ، وعجائب المولد ، ومشروعية الإحتفال بالمولد ، وطرف يسير من السيرة ، والحديث عن أهله وأولاده عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وفيه بحث علمي نفيس ممتع محقق ، عن عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ في الإجتهاد ، والجواب عما يوهم خلاف ذلك ، كأسرى بدر وتأبير النخل .

وجاء في ختام الكتاب بسرد آثار سلفية فيها تبرَّك الصحابة والتابعين بأجزائه عليه الصلاة والسلام وآثاره وثيابه وموضع جلوسه ، وغير ذلك مما لمسه صلى الله عليه وسلم .

ثم بيان محبة أصحابه له صلى الله عليه وسلم ، وذكر شواهد ذلك من سيرتهم العطرة الزكية .

6 ـ الإيمان بالملائكة عليهم السلام .

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان الستة ، وجاء هذا الكتاب يبحث عن هذا الركن بإسهاب مدلل عليه من الكتاب والسنة .

ففيه أولاً : بيان الحكم من الإيمان بالملائكة ، ثم الكلام على حقيقتهم ، وتمثلاتهم ـ مع التعرض لعالم المثال وذكر البراهين عليه من الكتاب والسنة .

ثم الحديث عن رؤساء الملائكة واحداً واحداً ، ثم عن حملة العرش ، والملأ الأعلى ، والكروبيين ، والموكلين بالكتابة على الإنسان ، وبحفظه ، وعن مواقف الملائكة ووظائفهم المنوطة بالأكوان المحيطة بالإنسان .

ثم ختم الحديث عنهم بالكلام على عصمتهم من المعصية ، مع شرح قصة هاروت وماروت .

ثم ختم الكتاب ببحث موجز عن عالم الجن :

إثبات وجودهم بالآيات والأحاديث ، وممّ خلقوا ، وصفاتهم ، وأنهم مكلفون بالشريعة ، وأصنافهم ، وكيف يستطيع الإنسان أن يحفظ نفسه من الشيطان ـ ثم عن مصيرهم يوم القيامة .

7 ـ الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين ، فضائلها ، آثارها ، آدابها

جاء الكتاب ـ على كثرة ما كتب عن الصلاة ـ يسد ثغرة فيما كتب قبله عن الصلاة ، وهي : بيان أهميتها في الإسلام ، وآثارها في صاحبها في الدنيا والبرزخ والآخرة ، وما يتبع ذلك من آدابها .

إضافة إلى ما تناوله بعض المسائل العلمية المتعلقة بالصلاة ، مثل : مشروعية قضاء الصلوات الفائتة ، والأدلة الكثيرة على أن صلاة

التراويح عشرون ركعة .

8 ـ شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضائلها . معانيها . شواهدها ومشاهدها . مطالبها .

افتتح الكتاب بذكر فضائل لا إله إلا الله وآثارها الطيبة ، ثم ذكر فضل الشهادتين وما للمؤذنين من الأجر العظيم والثواب الجسيم .

بعد هذا ذكر ما جاء من الحث على الإكثار من الشهادتين ، وبيان مواطن ذلك ، ثم بيان وجه اقتران كل من الشهادتين بالأخرى .

تجد بعدها بحثاً نفسياً حول الأدلة على : لا إله إلا الله ، وأنها تشتمل على أصول إيمانية خمسة مع ذكر الأدلة التفصيلية على كل هذا .

ثم ذكر الكتاب ما تتطلبه الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ذكر بعض خصائصه عليه الصلاة والسلام مع التعرض وبشكل بيَّن وواضح ومختصر لمعجزة الإسراء والمعراج وبيان ما أكرم الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام حيث حصل ذلك كله بروحه وجسمه عليه الصلاة والسلام .

ثم ختم الكتاب بذكر بعض أوليات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

9 ـ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها

هذا الكتاب يعتبر أيضاً من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم يدور في فلك قول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي)الآية

افتتح الكتاب بتفسير الآية الكريمة وبشكل مسهب ومفصل ، ثم بيّن أحكام الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وموطن كل حكم وموضعه .

بعد ذلك عرض لذكر فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فذكر إحدى عشر فضيلة مع الدليل على كل منهما .

ثم ذكر فوائد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فذكر عشرين فائدة مع الدليل لكل منها .

وقبل الخاتمة جاء البيان والشرح التفصيلي للصلاة الإبراهيمية جملة جملة ، مع بيان معنى التشهد ، وذكر بشائر غرر للمكثرين من الصلاة على سيد البشر صلى الله عليه وسلم .

وهنا فائدة مهمة حول الرؤيا المنامية وأقسامها .

وختم الكتاب بذكر جواب أهل العلم والرشاد لمن دأبه الاعتراض والانتقاد لإيراد المؤلف لبعض الأحاديث الضعيفة في كتبه وهو بحث نفيس نافع .

10 ـ الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها :

افتتح الكتاب ببيان أن الآخرة حق لا ريب فيها وذكر وجوه ذلك ، ثم ذكر كلمات حول الروح الإنساني .

بعد ذلك بدأ بذكر عالم البرزخ _ عالم القبور _ وبيان حكم تلقين الميت ، نعيم القبر وعذابه ، وأن الأموات ينتفعون بالأعمال الصالحة التي تهدى إليهم من الأحياء ثم ذكر بعث الخلائق والأدلة على ذلك ، وكيفية البعث .

ثم البحث حول الصور ومن ينفخ فيه ، وعالم الحشر ، وصفة أرض الحشر ، وأهل المحشر ، وما فيه من أهوال ، ومن يكرم فيه وبيان سبب ذلك .

ثم الكلام حول عالم الحوض ، وبيان سعة حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان من يشرب منه ، ومن يزاد عنه .

ثم بحث الكتاب حول الشفاعات وأنواعها مع ذكر الشفاعات الخاصة .

ثم بيّن موقف العرض على رب العالمين سبحانه وتعالى ، وموقف اختصام الخلائق فيما بينهم .

ثم جاء الكلام عن عالم السؤال مع ذكر دليله وعن أي شيء يكون .

بعد ذلك الكلام عن عالم الحساب وبيان أصناف الناس بالنسبة للحساب ، وبيان أنواع الحساب .

ثم ذكر عالم الميزان وبيّن دقة الميزان ، والأعمال التي تثقله .

ثم عرض لموقف الشهادات بأنواعها . وعالم القصاص مبيناً عظم حقوق العباد ، وخطر أمرها ، وعالم الصراط وأحوال العباد في جوازهم للصراط .

وختم الكتاب بالحث على التوبة من كافة الذنوب والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى علام الغيوب .

11_شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث :

هو أوضح وأبسط كتاب في علوم الحديث ، ولا بد لطالب العلم أن يبتدئ دراسته لهذا العلم بهذا الكتاب .

وهو شرح للمنظومة البيقونية الشهيرة ، تكلم فيه عن ثمانية وثلاثين نوعاً من أنواع علوم الحديث هي أهم أنواعه ، وأكثرها استعمالا في كتب العلم ـ ـ مع ترتيب مدرسي للكلام على كل نوع ،التعريف أولاً ثم تقسيم كل نوع إلى وجوه وأقسام ثم الأمثلة على كل قسم ، مع ذكر مسائل مهمة تتعلق بكل نوع .

وجاءت أنواعه مرتبة فيه : كل زمرة من أنواعه مجموعة على حدة ،

تقريباً للنظير إلى نظيره ، وتيسيراً للقارئ أن يستوعب الأنواع المتشابهة مجتمعة غير متفرقة ، وهذا مالا يجده القارئ في كتاب آخر سبقه بهذا الترتيب .

* * *

كتب للمؤلف

- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ، ومعه بحث مختصر حول عالم الجن .
- تلاوة القرآن المجيد _ الطبعة الرابعة مزيدة زيادات هامة .
- التقرب إلى الله تعالى : فضله _ طريقه _ مراتبه .
- الدعاء : فضائله ، آدابه ،ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : شمائله الحميدة ، وخصاله المجيدة _ الطبعة الثامنة .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله : فضائلها ،معانيها ، شواهدها ومشاهدها ، مطالبها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أحكامها ، فضائلها ، فوائدها .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين ، فضائلها ، آثارها ، آدابها .
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- أدعية الصباح والمساء .